

الأندلس وما جاورها

قبل الفتح الإسلامي وفي ايامه ، وفتح الأندلس ، وعبرة الفتح ، وحضارة المسلمين في الأندلس

القسم الأول والثاني والثالث

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجـزء الثاني والثالث ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

شوال ١٤٠٧ هـ ـ حزيران ١٩٨٧ م

الجزء الرابع ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ ـ كانون الاول ١٩٨٧ م

الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م

الأندلس وما جاورها

قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه ، وفتح الأندلس ، وعبرة الفتح ، وحضارة المسلمين في الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

الموقع والحدود

١ ـ الأندلس

آ ـ الموقع :

تقع شبه الجزيرة الأيبيريَّة (الأندلس)، في الجنوب الغربيّ من القارة الأوروبيَّة ، تفصلها عن جنوبيّ فرنسة جبال البُرْتات (البُرْتات Pyrenees) وتُعرف بالاسبانيّة (Pirineos) (١) ، حيث تتصل الأندلس بالأرض الفرنسيّة . ويفصلها من الجنوب عن إفريقيَّة مضيق جبل طارق ، الذي يبلغ عرضه من الشّرق إلى الغرب (١٣ ـ ٣٧ كم) (٢) .

وتقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الأفريقيّ ، ويفصل المضيق بين الأندلس والمغرب الأقصىّ ، ويصل هذا المضيق المحيط الأطلسيّ والبحر المتوسط .

---

(١) تسمى هذه الجبال احيانا : البرانس ، وهي تسمية خاطئة ، لأن جبال البرانس تقع شمالي قرطبة ، وتعرف أيضاً بجبال المعدن (Sierra de Almadén) ، انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥ و ١٢٩) والروض المعطار (١٤٢) ونفح الطيب (١ / ١٤٣) ودولة الاسلام في الأندلس (١ / ٥٣ و ٨٢) وتاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ـ حسين مؤنس (٢٦١ و ٤٨١) والتاريخ الاندلسي (٣٥) .

(٢) الاستبصار في عجائب الأمصار ـ مجهول المؤلف (١٣٨) .

وتقع سواحل الأندلس الشماليّة والشماليّة الغربيّة على المحيط الأطلسي عند خليج بَسْكَاى (بَسْقَاية Biscay) الذي تقع عليه مدينة خيخون (Gijon) . وتقع سواحلها الغربية على المحيط الأطلسيّ ، الذي يُعرف عند بعض المؤلّفين المسلمين : البحر الأخضر (٣) ، أو البحر المحيط (٤) ، أو البحر المحيط الرُّوميّ (٥) أو البحر المظلم (٦) أو بحر الظلمات (٧) ، أو بحر الظلمة (٨) أو أقيانس (٩) .

وتقع شواطيء الأندلس الشرقيّة والجنوبيّة الشرقيّة على البحر الأبيض المتوسِّط ، الذي يسمى أيضا : البحر الرّوميّ (١٠) ، أو البحر الشاميّ(١١)، أو بحر تيران (١٢) .

ب ـ مصطلح الأندلس ومدلوله :

أصل مصطلح الأندلس ، مأخوذ من اسم قبائل الوندال (Vandals)

---

(٣) الروض المعطار (٢٨) ونفح الطيب (١ / ٢٧٦) و (١٨٩/٣ ، كأنه يطلقه على خليج بسكاى .

(٤) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٦ و ١٤٣ و ١٥٦) والروض المعطار (٢٦ و ٢٨ و ٥٥ و ٥٦ و ٦٤ و ٦٧ و ٨٣) ومقدمة ابن خلدون (١ / ٤٢٧) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (١٢٨ و ١٦٢ و ١٦٥) نص ابن الشباط ، ونفح الطيب (١ / ١٣٧) .

(٥) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ ابن بسام الشنتريني (١ / ١٣٠) .

(٦) الروض المعطار (٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٦٩) .

(٧) الروض المعطار (٢٨) .

(٨) تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط ، والروض المعطار (١٢٧) .

(٩) تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط ، والروض المعطار (٢٨) .

(١٠) الروض المعطار (٢٨ و ٦٢ و ٨٣) ومقدمة ابن خلدون (١ / ٤٢٧ و ٤٦٤) ونفح الطيب (١ / ١٣٢) .

(١١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٦ و ١٤٣ و ١٥٦ و ١٧٩ و ١٨٠) والروض المعطار (٢ و ٢٦ و ١١٥ و ١٢٦ و ١٢٨) وتاريخ الأندلس (١٢٨) نص ابن الشباط ، ونفح الطيب (١٣٥/١) .

(١٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٨) ونفح الطيب (١ / ١٣١) .

التي تعود إلى أصل جرماني ، احتلّت شبه الجزيرة الأيبيريّة حوالي القرن الثالث والرابع الميلاديين وحتى القرن الخامس الميلادي ، وسميت باسمها : فاندلسيا (Vandalusia) أي : بلاد الوندال ، ثم نُطقت بالعربية : الأندلس .

اما مدلول هذا المصطلح فقد اطلق المؤرخون والجغرافيون الاندلسيون أحياناً على كلّ شبه الجزيرة الأيبيريّة – إسبانيا والبرتغال اليوم والتي يسمّونها أيضاً : الجزيرة الأندلسية . ثمّ استعمل للدّلالة على كلّ المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الأيبيريّة (١٣) .

وحدود الأندلس أيام الخلافة الأندلسية . تشمل كلّ البرتغال تقريباً . وأكثر إسبانيا الحالية . وكانت الأندلس تمتدّ جنوب الخط الوهميّ الذي يصل بين نهر دُوَيْرُهْ (Duero) في الغرب حتى مدينة بَرْشَلُونَة (Barcelona) في الشرق . مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط ، ويفصل هذا الخط بين إسبانيا النصرانيّة في الشمال . وبين الأندلس الأسلامية في جنوبه (١٤) .

وحين يُذكر مصطلح الأندلس . يُقصد به أيضاً ، زيادة على ما سبق ، المنطقة الأسلاميّة التي شملها الأسلام . سلطاناً وسكّانا ، من شبه الجزيرة الأيبيريّة ، وعلى الأغلب في شمولها أيام الخلافة الأندلسيّة ، أو شاملة لكلّ شبه الجزيرة كما ذكرنا قبل قليل .

وتُطلق اليوم كلمة : أَنْدَلُشِيَا (Andalucia) بالأسبانيَّة ، على المنطقة الجنوبيّة من إسبانيا . وهو اصطلاح إداريّ ، لا يُمثّل المعنى التاريخيّ المُبَيَّن لمصطلح الأندلس .

وبعض الأسماء الخاصة بالأمكنة والمدن في شبه الجزيرة الأيبيريّة ذات أصل أندلسيّ . منقول إلى الأسبانية . أو إنّه إسبانيّ نُقل إلى العربيّة . وهناك

---

(١٣) جغرافية الأندلس واوروبا (٥٩) والروض المعطار (٤ – ٦ و ١٩) ونفح الطيب (١ / ١٣٣) ودولة الاسلام فى الأندلس (١ / ٢٧ و ٥٠) .
(١٤) التاريخ الأندلسى (٣٧) .

عدد من الأسماء يتّسم بطابعه الأندلسيّ ، وكلّ اسم في الأسبانيّة – حالياً – مسبوق ب (أل) التّعريف ، دليل على أندلسيّته أو تأثّره بالأندلسيّة .

وكانت ولا تزال تقوم في إسبانيا مدن وقواعد أندلسيّة ، بعضها كبرى، تحتفظ بآثار العمران الأندلسيّة ، مثل : قُرْطُبَة ، وإشْبِيْلِيَة ، وغُرْناطة ، وطُلَيْطُلة ، ومالَقَة ، وغيرها (١٥) .

٢ – المدن :

ستذكر المدن بالنسبة لورودها في : قادة فتح الأندلس ، لابالنسبة لأهميتها .

١ – جزيرة طريف : Tarifa :

جزيرة صغيرة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ، وهي جزيرة صغيرة محصّنة ، يربطها بشبه جزيرة الأندلس حالياً جسر بحريّ .

ومدينة طريف ، ميناء أندلسي ، يقع في منطقة قادس ، عند النقطة الجنوبيّة القصوى من شبه الجزيرة ، تبعد عن جبل طارق (٢١) ميلاً .

وأطلق اسم القائد الفاتح طريف بن مالك على الجزيرة والمدينة (١٦) .

٢ – الجزيرة الخضراء : Algeciras :

مدينة أمام سَبْتَة من برّ الأندلس الجنوبيّ ، تقع في منطقة قادس ، على بُعْد ستة أميال إلى الغرب من جبل طارق ، وقد أعاد المسلمون تأسيسها سنة (٩٥ هـ – ٧١٣ م) ، وظلت الجزيرة الخضراء مدينة عربية حتى استولى عليها الفونس السادس حاكم قشتالة سنة (١٣٤٤م) بعد حصار دام عشرين شهراً ، وشاركت في هذا الحصار جماعات صليبيّة جاءت من مختلف أنحاء اوربا . وقد استخدم العرب البارود في هذا الحصار لأوّل مرّة في تاريخ الحروب

(١٥) التاريخ الاندلسى (٣٧ – ٣٨) .

(١٦) انظر تقويم البلدان (١٦٦ و ١٨٨) ، وانظر دائرة المعارف البريطانية .

الأوربية . وهي مدينة طيبّة نزهة ، توسّطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النّضيرة ، ونهرها يعرف بوادي العسل ، وهي من أجمع المدن لخير البر والبحر (١٧) .

٣ ــ طُلَيْطِلة : Toledo :

وتلفظ أيضاً : طُلَيْطُلَة ، وهي عاصمة الأندلس ، تقع في شرقي مدينة وليد ، على جبل عالٍ ، وهي من أمنع البلاد وأحصنها ، ولها نهر يمرّ بأكثرها . وهي مدينة قديمة جداً ، ومنها إلى نهاية الأندلس شرقاً نحو نصف شهر ، وكذلك إلى البحر المحيط بناحية شلب وهو نهاية الأندلس الغربية ، وتحدق الأشجار بطليطلة من كلّ جهة ، وفيها أشجار أنواع من الثمر . ونهر طليطلة ينحدر إليها من عند حصن هناك ، يقال له : باجة ، ويعرف نهر طليطلة به فيقال : نهر باجة (١٨) .

٤ ــ قَرْطاجَنّة الجزيرة : Cartagena :

مدينة أمام سبتة من برّ الأندلس الجنوبيّ ، وهي مدينة طيّبة نزهة توسّطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، تعرف بقرطاجة الخلفاء ، قريبة من آلش ، من أعمال تدمير ، وكانت عملت على مثال قرطاجة التي بأفريقيّة (١٩) .

---

(١٧) تقويم البلدان (١٧٢ ــ ١٧٣) ومعجم البلدان (٣ / ٩٩) ، وانظر دائرة المعارف البريطانية .

(١٨) تقويم البلدان (١٧٦ ــ ١٧٧) ومعجم البلدان (٦ / ٥٦ ــ ٥٧) وجغرافية الأندلس واوروبا (٨٦ ــ ٨٨) والحلل السندسية (١ / ٣٦٣ ــ ٤٧١) .

(١٩) معجم البلدان (٧ / ٥٣) والمشترك وضعاً (٣٤٢) وجغرافية الأندلس واوروبا (١٣٥) .

٥ ـ بَنْبَلُونَة : Pampeona:

مدينة أندلسيّة في غربيّ الأندلس ، خلف جبل الشارة ، وتعتبر من مدن الجزء الثالث من أجزاء الأندلس ، كما تعتبر عاصمة بلاد نافار (Navarre) ، وتقع نافار شرقي مملكة ليون ، محاذية لجبال البُرْت التي تفصل بين إسبانيا وفرنسة ، وسكانها من البشكنس (٢٠) (Basques).

٦ ـ قُرْطُبَة : (Cordoba :

تقع غربي النهر الكبير الذي عليه إِشْبِيلِية ، وقرطبة شرقي إشبيلية ، وهي في جنوبي طُلَيْطِلَة ، وطليطلة عن قرطبة في الشمال والشرق على سبعة أيام ، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع ، وهي أعظم مدائن الأندلس . وهي مدينة حصينة بسور ضخم من الحجر ، ولها سبعة أبواب . ومن مشاهير أعمال قرطبة كورة القصير ، وهو حصن في شرقي قرطبة على النهر ، وكذلك من أشهر أعمال قرطبة حصن المدوّر ، وهو المعقل العظيم المشهور ، وكذلك حصن مراد ، وهو في غربيّ قرطبة ، ومن أعمال قرطبة كورة غافق وكورة إِسْتِجَّة والقنطرة التي عند قرطبة وعلى نهرها ، من أعظم آثار الأندلس وأعجبها (٢١).

٧ ـ شَقُنْدَة : Secunda :

هي حيّ الرّبض (الضاحية) جنوبي قُرْطُبَة في الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير ، وكان هذا الرّبض يُعرف باسم : شَقُنْدُة ، معرّب عن اللاتينيّ (٢٢) .

---

(٢٠) تقويم البلدان (١٨٠ ــ ١٨١) وجغرافية الأندلس واوروبا (٦٢ و ٧٩) .

(٢١) تقويم البلدان (١٧٤ ــ ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) ومعجم البلدان (٧ / ٦٣ ــ ٥٤) وجغرافية الأندلس واوروبا (١٠٠ ــ ١٠٦) ونفح الطيب (١/٤٥٥ ــ ٥٢٣) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٥) .

(٢٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٣٩) .

٨ - شَذُونَة : Medina — Sidonia :

مدينة بالأندلس ، تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس ، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة ، تشتهر بأطيب العنبر العربي الوردي (٢٣) ..

٩ - اِستِجَة : Acija :

اسم لكورة بالأندلس ، متصلة بأعمال ريَّة ، بين القبلة والمغرب من قرطبة ، وهي كورة قديمة واسعة الرّسانيق والأراضي ، على نهر سَنْجَل وهو نهر غرناطة ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متّصلة بأعمال قرطبة (٢٤) .

١٠ - قَادِس : Cadiz :

جزيرة في غربيّ الأندلس ، تقارب أعمال شَذُونَة ، طولها اثنى عشر ميلاً . قريبة من البر ، بينها وبين البرّ الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر (٢٥) .

١١ - مُرسِيَة : Murcia :

مدينة محدثة إسلاميّة ، بُنيت في أيام الأُمويين الأندلسيين ، ومرسية في شرقي الأندلس تشبه إِشْبِيلِيَة التي في غربيّ الأندلس ، بكثرة المنازة والبساتين ، وهي على الذراع الشّرقيّ الخارج من عين نهر إشبيلية ، ومرسية من قواعد شرقي الأندلس . ولها عدة منتزهات منها : الرَّشَاقة ، والزّقات ، وجبل إيل ، وهو جبل تحته البساتين وبسط تسرح فيه العيون . ومن أعمال مرسية : مُولَة وهي في غربي مرسية . ومن أعمال مرسية مدينة أريولة ، ومن أعمالها قرية اِلحِرلَّة وهي حسنة المنظر (٢٦) .

---

(٢٣) معجم البلدان (٥ / ٢٤٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٥ و ١٢٧) .
(٢٤) معجم البلدان (١ / ٢٢٤) وانظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤) .
(٢٥) معجم البلدان (٧ / ٤ — ٥) .
(٢٦) تقويم البلدان (١٧٨ — ١٧٩) ومعجم البلدان (٨/ ٥٤ — ٢٥) .

١٢ ـ شَرِيْش : Xeres - Jerez :

مدينة كبيرة من كورة شَذُونَة ، وهي قاعدة هذه الكورة ، وأصبح المسلمون يسمونها : شَرَش (٢٧) .

١٣ ـ المَدْوَر : Almodouar :

اسم حصن حصين مشهور بالأندلس ، يقع بالقرب من قُرطبة ، لهم فيه عدّة وقائع مشهورة (٢٨) .

١٤ ـ إشبيلِيَة : Sevilla, Seville :

مدينة تقع على شرقي نهرها الأعظم وجنوبيه ، وهي في غربيّ قرطبة ، ومن قواعد المسلمين في الأندلس . ولها ، خمسة عشر باباً ، وهي من غربيّ الأندلس وجنوبيّه ، وبين إشبيلية وقرطبة أربعة أيام . وطول منطقة إشبيلية من الغرب عند مصب نهرها في البحر المحيط إلى الشرق إلى أعلى النهر حتى حدود منطقة قرطبة نحو خمسة مراحل ، وعرضها من الجزيرة الخضراء وهي على ساحل الأندلس الجنوبي إلى منطقة بطليوس في الشمال نحو خمسة أيام ، وهي مدينة قديمة ، ومعنى اسمها: المدينة المنبسطة. وهي مدينة عظيمة كبيرة ، قريبة من البحر ، يطلّ عليها جبل الشرف ، وهو جبل كثير الزيتون والفواكه ، ويزرع في هذه المدينة القطن . (٢٩) .

١٥ ـ مَالَقَة : Malaga

مدينة أندلسية عامرة من أعمال ريّة ، سورها على البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وتقع جنوبي قرطبة . بينهما خمسة أيام ، وتقع على بحر الزقاق

---

(٢٧) معجم البلدان (٥ / ٢٦٠) .

(٢٨) معجم البلدان (٧ / ٤١٧) .

(٢٩) تقويم البلدان (١٧٤ ـ ١٧٥) ومعجم البلدان (١ / ٢٥٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٠٧ ـ ١١٦) .

جنوبيّ الأندلس ، وهي كثيرة الفواكه وأهمها التين واللوز (٣٠) .

١٦ - الِبيرَة : Elvira :

اسم كورة كبيرة بالأندلس ، واسم مدينة أيضاً ، سمِّيت الكورة باسمها ، متَصلة بأراضي كورة قَبْرَة بين القبلة والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً ، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار ، وفيها عدّة مدن ، منها : قَسْطِيلِيَة وغَرْنَاطَة وغيرهما . وفي أرضها معادن ذهب وفضّة وحديد ونحاس ومعدن حجر التوتيا ، في حصن يقال له : شلوبينية ، وفي جميع نواحيها يُعمل الكتان والحرير الفائق (٣١) .

١٧ - غرناطة : Granada :

مدينة في نهاية من الحصانة ، ومملكتها إلى الجنوب والشرق من قرطبة ، وبينها وبين قرطبة نحو خمسة أيام ، وهي في نهاية النزاهة ، وتشبه دمشق وتفضّل عليها بأنّ مدينتها مشرفة على غوطتها ، وهي مكشوفة من الشمال ، وينصب أنهارها من جبل الثلج الذي هو من جنوبيها ، وتنخرق فيها الأنهر ، وعليها الأرحى داخل المدينة ، ولها قلعة عالية شديدة الامتناع ، ولها أشجار وثمار ومياه مسيرة يومين تقع تحت مرأى العين لا يحجبها شيء ، واسم نهرها : نهر قَلُوْم ، ويعرف الآن بنهر حدارة (٣٢) .

١٨ - تدْمِير : Tudmir :

كورة بالأندلس ، تتصّل بأحواز كورة جيَّان ، وهي شرقيّ قرطبة ، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق ، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد ، وتسير العساكر أربعة عشر يوماً (٣٣) .

---

(٣٠) معجم البلدان (٧ / ٣٦٧) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) والروض المعطار (١٧٧) و جغرافية الأندلس واوروبة (١٢٨) .

(٣١) انظر معجم البلدان (١ / ٣٢٢) و (٢ / ٣٣٠) و (٧ / ٨٨) .

(٣٢) تقويم البلدان (١٧٤ — ١٧٥) ومعجم البلدان (٦ / ٢٨٠) .

(٣٣) معجم البلدان (٢ / ٣٧١ - ٣٧٢) .

١٩ ـ أوْرْيُولَة : Orihuela :

مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تُدْمِيْر ، بساتينها متّصلة ببساتين مُرْسية (٣٤) .

٢٠ ـ جَيّان : Jaen :

مدينة لها كورة واسعة بالأندلس ، تتصّل بكورة إلْبِيْرَة مائلة عن إلبيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قُرطبة ، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً ، وهي كورة كبيرة تجمع قُرى كثيرة وبلدانا ، وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة ، وهي في نهاية المنعة (٣٥) .

٢١ ـ جِلّيْقِيَّة : Galicia :

بلدة قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب ، ومصب نهرها في المحيط (٣٦) .

٢٢ ـ استُرْقَة : Astorga :

من مدن جليقيّة قرب ساحل المحيط ، وهي التي يسميها ياقوت : أسْتُوْرِيس (Asturies) ، ويذكر أنّها حصن من أعمال وادي الحجارة ، أحدثه محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام الأُموي ، (عمّره) في نحر العدو ، ولا تزال أسوار استرقة ماثلة (٣٧) .

٢٣ ـ طَلَبِيْرة : Talavera de la Reina :

مدينة كبيرة بالأندلس ، من أعمال طليطلة ، وهي قديمة البناء ، على نهر

---

(٣٤) معجم البلدان (١ / ٣٧٣) .

(٣٥) تقويم البلدان (١٧٤ ـ ١٧٥) ومعجم البلدان (٣ / ١٨٥ ـ ١٨٦) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤) .

(٣٦) معجم البلدان (٣ / ١٣١) وتقويم البلدان (١٨٤ ـ ١٨٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧١ ـ ٧٣) و (٧٤ ـ ٧٩) و (٨٠ ـ ٨١) .

(٣٧) معجم البلدان (١ / ٢٢٥) والحلل السندسية (٢ / ٥٨ ـ ٥٩) وقادة فتح المغرب (١/٢٦٨) .

تاجُهْ ، تقع غربي طليطلة (٣٨) .

٢٤ ـ أكْشُونُبَة : Ocsonoba :

مدينة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل لشبونة ، وهي غربي قرطبة ، تقع جنوبي البرتغال حيث مدينة فارو (Faro) الحالية (٣٩) .

٢٥ ـ قَرْمُونَة : Carmona :

كورة بالأندلس ، يتصل عملها بأعمال إشبيلية ، غربي قرْطبة ، وشرقي إشبيلية . قديمة البنيان ، بينها وبين اشبيلية سبعة فراسخ ، وبينها وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً ، وأكثر ما يقول الناس : قَرْمونة ، وقد ذكرها ياقوت باسم : قَرْمُونِيَة (٤٠) .

٢٦ ـ رَعواق : Alcalá Guadaira :

وردت هذه المدينة في المصادر العربية بصيغ مختلفة : رعوان ، زعواق ، رَعْواق . ويبدو أنّ الصواب هو رَعْواق ، وهي : قلعة جوادايرا ، وهي في منطقة قَرْمُونَة (٤١) .

٢٧ ـ لَبْلَة : Niella :

قصبة كورة بالأندلس كبيرة ، يتَصل عملها بعمل أَكْشُونُبَة ، وهي شرق أكشونبة وغرب من قرطبة . بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام : اربعة واربعون فرسخاً . وبين إشبيلية اثنان واربعون ميلاً ، وهي

---

(٣٨) معجم البلدان (٧ / ٥٣) وابن الأبار (٢ / ٢٥٧) والروض المعطار (١٢٧) وآثار البلاد (٥٤٥) وصفة المغرب والأندلس للأدريسي (١٨٧) وجغرافية الأندلس واوروبا (٨٩) .

(٣٩) معجم البلدان (١ / ٣١٧) ، وفيه وردت : اكسبونية ، وانظر الحلة السيراء (١ / ٦٢) و (٢ / ٢٠٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٥) .

(٤٠) معجم البلدان (٧ / ٦٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤) .

(٤١) انظر فجر الأندلس (٩٢) .

بريّة بحريّة ، غزيرة الفضائل والثمر والزروع والشجر ، ولأدمها فضل على غيره ، ولها مدن ، وتُعرف بلبلة الحمراء (٤٢) .

٢٨ ـ بَاجَة : Beja :

مدينة من أعمال الأندلس ، تتَصل بنواحي ماردة ، وهي ضمن اثنتي عشرة مدينة قاعدتها ماردة (٤٣) .

٢٩ ـ مَارِدَة : Mérida :

كورة واسعة من نواحي الأندلس ، متَصلة بحوز فِرِّيش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة ، إحدى القواعد التي تخيرّتها الملوك للسكنى من القياصرة والرُّوم ، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة ، تقصد للفرجة والتّعجب ، بينها وبين قرطبة ستة أيام ، ولها حصون وقرى ، وماردة قاعدة الكورة لاثنتي عشرة مدينة أندلسيّة (٤٤) .

٣٠ ـ لَقَنْت : Alicante :

مدينة من مدن تدمير التي صالح عليها عبدالعزيز بن موسى بن نُصَيْر ، وهي سبع مدن ، وأساسها حصنان من أعمال ماردة : لقنت الكبرى ، ولقنت الصغرى ، وكلّ واحدة تنظر إلى صاحبتها (٤٥) .

٣١ ـ قَشْتَالَة : Castile — Castilla :

إقليم عظيم بالأندلس ، قصبته طليطلة (٤٦) .

٣٢ ـ سَرَقُسطَة : Zaragoza :

مدينة أندلسية ، واسمها تعريب للاسم الروماني : قيصرأجستا (Augusta -

(٤٢) معجم البلدان (٧ / ٣١٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤) .
(٤٣) معجم البلدان (٢/٢٥ ـ ٢٧) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣) .
(٤٤) معجم البلدان (٧ / ٣٦٠) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣) .
(٤٥) معجم البلدان (٧/٣٣٦) وافتتاح الأندلس (٩) وفجر الأندلس (٩٢ و ١١٥).
(٤٦) معجم البلدان (٧ / ٩٣) .

Seasar) لأنّ أغسطس قيصر هو الذي أسّسها سنة (٢٣ ق . م) على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الايبيريين باسم: سلدوبا (Salduba) وهي أطيب البلاد ، تقع على نهر : (إبْرُهْ) الذي ينصبّ في البحر الأبيض المتوسط بساحل طَرطوشة (٤٧) .

٣٣ ـ وَشقَة : Huesca :

بليدة بالأندلس ، وتعدّ من الثغر الأعلى من ثغور الأندلس مع لارِدَة(٤٨).

٣٤ ـ لارِدَة : Lerida :

مدينة مشهورة بالأندلس من الثغور ، وفي شرقيها جبل البرت الفاصل بين الأندلس وفرنسة ، وهي من المدن القديمة (٤٩) .

٣٥ ـ طَرّكونَة : Tarragona :

بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طَرْطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطيء البحر ، وهو بين طرطوشة وبَرْشَلُونَة ، بينها وبين كلّ واحدة منهما سبعة عشر فرسخا .

وطرّكونة موضع آخر بالأندلس ، من أعمال لَبْلَة (٥٠) .

٣٦ ـ بَرْشَلُونَة : Barcalona :

مدينة أندلسية مشهورة ، قريبة من طَرْطوشة (٥١) ، وهي في البرتغال عاصمةً لها في الوقت الحاضر .

---

(٤٧) معجم البلدان (٥ / ٧١) ونصوص عن الأندلس لابن الدلائى (٢١ ـ ٢٣).

(٤٨) معجم البلدان (٨/ ٤٢٣) ونصوص عن الأندلس (٢٤) وجغرافية الأندلس واوروبا (٩٠) .

(٤٩) معجم البلدان (٧ / ٣١٣) وتقويم البلدان (١٨٠ ـ ١٨١) .

(٥٠) معجم البلدان (٦ / ٤٤) .

(٥١) تقويم البلدان (١٨٢ ـ ١٨٣) وجغرافية الأندلس واوروبا (٩٦ ـ ٩٩) .

٣٧ ـ اماية : Amaya :

أحد مدن الأندلس ، وهي إحدى مدن الجزء الثالث ، التي من مدنها برشلونة وبَنْبُلُونَة (٥٢) ، في منطقة بلاد البرتغال حالياً

٣٨ ـ لِيُون : Leon :

مدينة بالأندلس في شمالي سَمُّوْرَة بانحراف إلى الشرق ، وهي على نهر يصبّ في نهر سَمُّوْرَة ، وهي أجمل مدن الجلالقة ، ومن ليون إلى ساحل بحر الظلمات (المحيط) أربع مراحل غرباً ، وهي من جِلِّيقِيَّة (٥٣) .

٣٩ ـ بَلَنسِيَة : Valencia :

مدينة تقع على بحيرة ، يصبّ فيها نهر يمرّ على شمالي بلنسية ، وهي في شرقي الأندلس ، وتقع في أحسن مكان ، وقد حُفّت بالأنهار والجنان ، فلاترى إلاّ مياها تتفرّع ، ولا تسمع إلاّ أطياراً تسجع ، وهي على القرب من بحر الزقاق ، وتقع شرقي مرسية وغربي طرطوشة . ومن مشاهير منازهها الرصافة ، ومنية ابن عامر ، ومن أعمالها مدينة شاطبة ، وهي حصينة ، وجوّها صقيل لا يُرى فيه ما يكدّره ، وبلنسية اسم كورة أيضاً (٥٤) .

٤٠ ـ أرْبُونَة : Narbonne :

مدينة في شمال شرقي قرقشونة ، تقع على الساحل الفرنسي الجنوبي(٥٥).

٤١ ـ قَرْقَشُونَة : Carcassonne :

بلدة جنوبي فرنسة ، قريبة من حدود إسبانيا الشمالية ، تبعد عن قرطبة

---

(٥٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢) .

(٥٣) تقويم البلدان (١٨٤ ـ ١٨٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧٥) .

(٥٤) معجم البلدان (٢ / ٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٨ ـ ١٧٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢ و ١٢٢) .

(٥٥) تقويم البلدان (١٨٢ ـ ١٨٣) .

خمسة وعشرين يوما (٥٦) .

٤٢ ـ بلانة : Villena :

ووردت : بَلَنْتِلَة (Valentola) في مرجع آخر . وبلانة : إحدى مدن كورة تُدْمِيْر التي تتصل بأحواز كورة جَيَّان ، وهي شرقي قرطبة (٥٧) . أما بلنتلة فقرية قديمة كانت على مقربة من بليدة (Alcantarilla) الحالية ، على خمسة كيلو مترات من مرسية (٥٨) . وأرجح أنّها بلانة ، لأنها داخلة ضمن المدن السبع التي صالح عليها عبدالعزيز بن موسى تدمير بن غبدوش (٥٩) وليس من المعقول أن يصالح تدمير على قرية ، لكثرة القرى وانتشارها ، وهي تابعة للمدن التي صُولح عليها .

٤٣ ـ مُوْلَة : Mula :

إحدى مدن كورة تُدمير التي صالح عليها عبدالعزيز بن موسى تدمير (٦٠).

٤٤ ـ بِسقَرَة : (Bigastre) :

بسقرة أو بسكرة . إحدى مدن كورة تدمير السبع التي جرى الصلح عليها (٦١) .

٤٥ ـ اِلّة : Ello :

إحدى مدن كورة تدمير السبع التي جرى الصّلح عليها (٦٢)

---

(٥٦) معجم البلدان (٧ / ٥٩) وتاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) .

(٥٧) معجم البلدان (٢ /٣٧١ ـ ٣٧٢) .

(٥٨) فجر الأندلس (١١٥) نقلاً عن سافدرا .

(٥٩) انظر التفاصيل في : فجر الاسلام (١١٤ ـ ١١٥) .

(٦٠) معجم البلدان (٢ / ٣٧١ ـ ٣٧٢) وجغرافية الأندلس واوروبا (١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩) .

(٦١) معجم البلدان (٢ / ٢٧١ ـ ٣٧٢) .

(٦٢) معجم البلدان (٢ / ٢٧١ ـ ٣٧٢) .

٤٦ ـ لُوْرَقَة : Lorca :

مدينة بالأندلس ، من أعمال تدمير ، وهي إحدى المدن السبّع التي جرى الصّلح عليها (٦٣) . .

٤٧ ـ يَابُرَة : Ebvora :

بلد أندلسيّ . يقع في غربي الأندلس ، في منطقة البرتغال الحالية (٦٤) .

٤٨ ـ شَنْتَرِيْن : Santarem ... Sanlarein :

مدينة متّصلة الأعمال بأعمال باجة ، في غربيّ الأندلس ، ثم في غربيّ قرطبة ، على نهر تاجة ، قريب من انصبابه في البحر المحيط ، وهي حصينة ، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين باجة اربعة أيام (٦٥) .

٤٩ ـ قَلَمْرِيَّة : Coimlra :

مدينة في الأندلس (٦٦) ، تقع في غربيّ الأندلس ، في البرتغال الحالية .

٥٠ ـ اَشْتُوْرِش : Asturias :

هي المنطقة الواقعة إلى أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الأندلسيّة ، وهي القسم الثاني من أقسام جِلِّيْقِيَّة الأربعة ، سميت بهذا الاسم ، وهو اسم وادٍ لأهلها يقال له : آشترو ، منه شرب جميع بلادهم (٦٧) .

٥١ ـ اَشْبُوْنَة = لشبونة : Lisbon :

مدينة أندلسية ، قاعدة مملكة على البحر المحيط ، في غربي إشبيلية وشماليها ، وهي مدينة قديمة تقع في غربي باجة ، ومن أشبونة إلى البحر ثلاثون ميلاً ، وهي كثيرة البساتين والفواكه والثمار . (٦٨) .

(٦٣) معجم البلدان (٧ / ٣٤٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٧) .
(٦٤) معجم البلدان (٨ / ٨٤٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣) .
(٦٥) معجم البلدان (٥ / ٣٠٠) وتقويم البلدان (١٧٢ ـ ١٧٣) .
(٦٦) معجم البلدان (٧ / ١٥١) .
(٦٧) جغرافية الأندلس وأوروبا (٧١ ـ ٧٢) .
(٦٨) معجم البلدان (١ / ٢٥٣) وتقويم البلدان (١٧٣ ـ ١٧٤) .

٥٢ ــ بَطَلْيُوْس : Badjoz :

مدينة كبيرة بالأندلس ، من أعمال مارِدة على نهر آنة ، غربي قرطبة ، بينها وبين قُرطبة ستة أيام ، وهي مدينة إسلامية محدثة ، ومن أعمالها المشهورة مدينة يابرة (٦٩) .

٥٣ ــ مدينة وَلِيْد : Valladolid :

هي من أحسن مدن الأندلس ، ولها أكثر من ثلاثة أنهر ، وهي في جنوبي جبل الشارة الذي يقسم الأندلس بنصفين ، وتقع غربي طليطلة (٧٠) .

٥٤ ــ المَرِيَّة : Almeria :

مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس ، وكانت هي وَبجَّانة بابي الشرق ، منها يركب التجار ، وفيها تحل مراكب التجار ، وفيها مرفأ ومرسى للسّفن والمراكب ، يضرب ماء البحر سورها ، ويُعمل فيها الوشي والديباج فيجاد عمله . وهي مسوّرة على حافة بحر الزقاق ، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شامخة ، وهواؤها معتدل (٧١) .

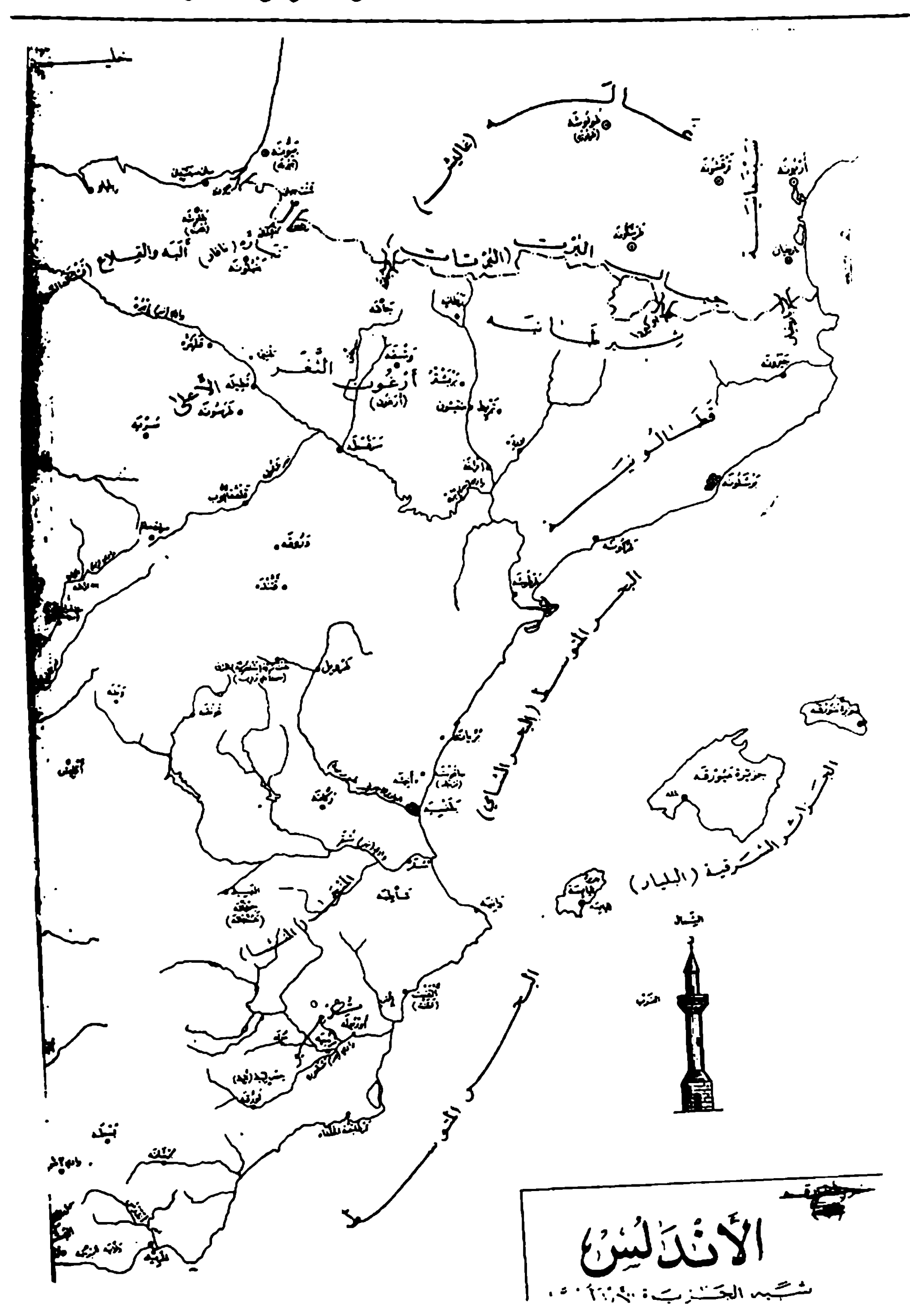
٥٥ ــ وادى الحجارة = مدينة الفَرَج : Guadalajara :

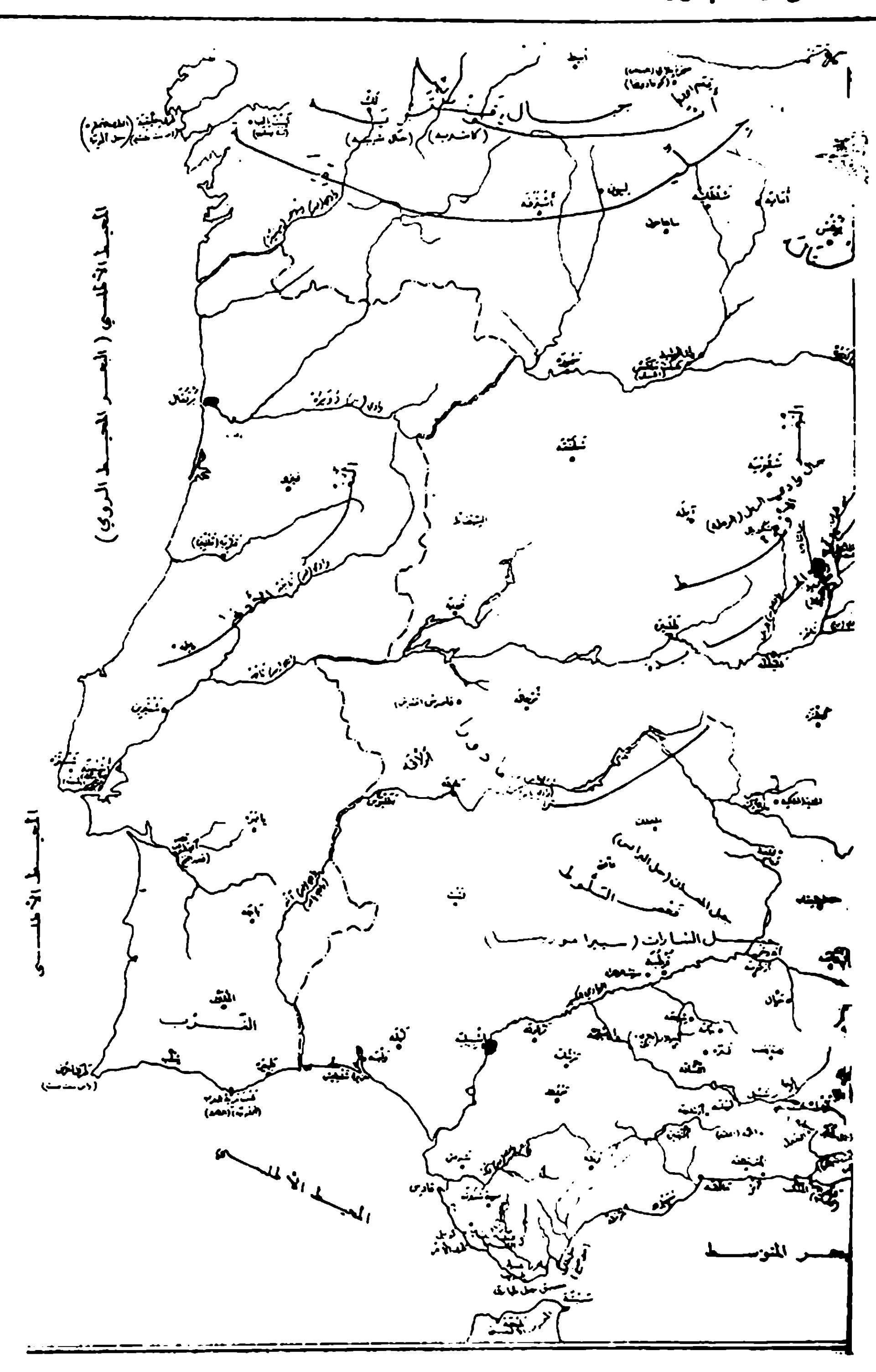
مدينة بالقرب من مدينة سالم ، وهي في شرقي طليطلة ، وفي شرقيها مدينة سالم (٧٢) . ويقال لنهرها : وادي الحجارة ، ولها مدن بينها وبين طليطلة ، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة (٧٢) .

٥٦ ــ مدينة سالم : Medinaceli :

مدينة بالأندلس ، تتصل بأعمال بارُوْشَة ، وهي قاعدة الثّغر الأوسط من شرقي الأندلس ، وكانت من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها شجراً وماء ،

(٦٩) معجم البلدان (١ / ٢١٧) وتقويم البلدان (١٧٣ ــ ١٧٤) .
(٧٠) تقويم البلدان (١٧٤ ــ ١٧٥) .
(٧١) معجم البلدان (٨ / ٤٢) وتقويم البلدان (١٧٤ ــ ١٧٥) .
(٧٢) معجم البلدان (٧ / ٣٥٥) وتقويم البلدان (١٧٨ ــ ١٧٩) .


الأندلس
البحر المتوسط (البحر الشامي)
الجزائر الشرقية (البليار)
جزيرة ميورقة
الثغر الأعلى
برشلونة
سرقسطة
بلنسية
دانية
الشمال


المتوسط
الغرب
المحيط الأطلسي

وكان طارق بن زياد لما افتتح الأندلس ألفاها خرابا ، فعمرت بالأسلام ، وهي مدينة جليلة (٧٣) .

٥٧ ـ دَانِيَة : Dania :

مدينة بالأندلس ، من أعمال بلنسية ، في غربي بلنسية ، على البحر ، وهي مدينة عظيمة القدر ، كثيرة الخيرات ، ومن أعمالها : يُكَتْران ، وحصن بَيْران ، ولها رساتيق واسعة ، كثيرة التين واللّوز والعنب (٧٤) .

٥٨ ـ تُطِيلَة : Tadela :

مدينة في الأندلس ، في شرقي قرطبة ، تتّصل بأعمال أَشِقَة ، تقع في جنوبي جبل الشّارة ، وهي من الثغور المقاربة لمدينة سالم ولسرقسطة ، وأرضها طيبة للزرع وهي محدثة ، اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبدالرحمن ابن معاوية ، فهي قد بنيت في أيام بني مروان على الأندلس ، وهي من المدن الجليلة بثغر الأندلس الشرقي (٧٥) .

٥٩ ـ طَرْطُوْشَة : Tort osa :

مدينة بالأندلس ، تتصل بكورة بلنسية ، وهي شرقي بلنسية وقرطبة ، قريبة من البحر ، وتقع شرقي النهر الكبير الذي يمرّ على سرقسطة ويصب في بحر الزقاق ، على عشرين ميلاً من طرطوشة (٧٦) .

٦٠ ـ شَنْت يَاقُب : Santiago

قلعة حصينة في الأندلس ، في الشمال والغرب من مدينة ليون ، وهي على البحر ، وحولها أنهار تنزل من جبل في شرقيها ، وهي من قلاع الجلالقة ، وأصبحت مدينة جليلة (٧٧) .

---

(٧٣) معجم البلدان (٥ / ١١) وتقويم البلدان (١٧٨ ـ ١٧٩) .
(٧٤) معجم البلدان (٤ / ٢٨) وتقويم البلدان (١٧٨ ـ ١٧٩) .
(٧٥) معجم البلدان (٢ / ٣٩٢) وتقويم البلدان (١٨٠ ـ ١٨١) .
(٧٦) معجم البلدان (٦ / ٤٢) وتقويم البلدان (١٨٠ ـ ١٨١) .
(٧٧) معجم البلدان (٥ / ٣٠١) وتقويم البلدان (١٨٢ ـ ١٨٣) .

٦١ - سَلَمَنْكَة : Salmanca :

مدينة أندلسيّة ، على شمالي نهر قُلُمْرِيَّة ، وبينها وبين مدينة قلمرية قاعدة غليسية مرحلتان ، وقلمرية شرقي سلمنكة .

٦٢ - قُورِيَة : Coria :

مدينة في الأندلس ، تقع جنوبي جبل الشارة ، وهي من نواحي ماردة ، في نصف الطريق بين ماردة وسمُّورة (٧٨) .

٦٣ - بَرْغَش : Burgos :

وردت باسم : برعش في معجم البلدان ، وبرغش في تقويم البلدان ، وأكثر المراجع – وخاصة المحدثة ، تذكرها : برغش . تقع في غربي بنبلونة ، وهي قاعدة قشتالة ، ودار صناعة السلاح المعمول في تلك المنطقة ، وهي في شمالي جبل البرت (٧٩) .

٦٤ - قَسْطَلُونَة : Castellon :

وردت قَسْطِيلْيَة في معجم البلدان ، ووردت قستليون ، ووردت كما في أعلاه في المراجع المحدثة . وهي مدينة أندلسية تقع شرقي برشاونة(٨٠).

٦٥ - أَسْتُورِيش : Asturias :

حصن في الأندلس ، من أعمال وادي الحجارة ، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأُمويّ ، وعمّره في نحر العدو (٨١) .

٦٦ - أُبَّدَة : Ubeda :

اسم مدينة بالأندلس ، من كورة جيَّان ، تعرف بأُبَّدة العرب ، اختطها

(٧٨) معجم البلدان (٧/ ١٨٢) وتقويم البلدان (١٨٤ – ١٨٥) .
(٧٩) تقويم البلدان (١٨٤ – ١٨٥) وانظر معجم البلدان (٢ / ١٢٨) .
(٨٠) معجم البلدان (٢ / ٨٨) وتقويم البلدان (١٨٤ – ١٨٥) .
(٨١) معجم البلدان (١ / ٢٢٥) .

عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك، وتمّمها ابنه محمد بن عبدالرحمن (٨٢) .

٦٧ ـ بَيَّاسَة : Baeza :

مدينة كبيرة بالأندلس ، معدودة في كورة جيّان ، بينها وبين أُبَّدَة فرسخان ، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب (٨٣) .

٦٨ ـ بَرْبُشْتَر : Brebastro :

مدينة عظيمة في شرقي الأندلس ، من أعمال بَرْبطانية ، ولها حصون كثيرة ، منها : حصن القصر ، وحصن الباكة ، وحصن قصر مينوقش ، وغير ذلك (٨٤) .

٦٩ ـ بَرْبَطَانِيَة : Boltania :

مدينة كبيرة في الأندلس ، يتصل عملها بعمل لاردة ، وكانت سدّاً بين المسلمين والرُّوم ، ولها مدن وحصون ، وفي أهلها جلادة وممانعة للعدو ، وهي في شرقي الأندلس . ويسميها صاحب نفح الطيب : كورة برطانية ، بياء واحدة ، لا بيائين ، وهو الأقرب للأصل الأسباني ، وهو يذكر بأنّها كورة، فيقول : كورة برطانية ، وقد اطلق اسم المدينة على الكورة (٨٥) .

٧٠ ـ بُبَشْتَر : Bobastro :

حصن منفرد بالامتناع ، من أعمال ريّة بالأندلس ، بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً ، وربما أشبعوا الباء الثانية فنشأت ألفا ، فقالوا : بباشتر (٨٦) .

---

(٨٢) معجم البلدان (١ / ٧٣) .
(٨٣) معجم البلدان (٢ / ٣١٨) .
(٨٤) معجم البلدان (٢ / ١٠٧) .
(٨٥) معجم البلدان (٢ / ١٠٧ ـ ١٠٨) ونفح الطيب (١ / ١٣١ و ١٣٣ و ١٦٧ و ١٩٧ و ٣٣٧) و (٤ / ٤٤٩) والحلل السندسية (٢ / ١٨٤) .
(٨٦) معجم البلدان (٢ / ٥٤) .

٧١ ـ بَقِيرَة : Viguera :

مدينة في شرقي الأندلس ، معدودة من أعمال تُطيلة ، بينهما أحد عشر فرسخاً . وبقيرة أيضاً ، حصن من أعمال ريّة (٨٧) .

٧٢ ـ بَرْمِنتَش : Bermudo :

إقليم من أعمال بطليوس من نواحي الأندلس (٨٨) .

٧٣ ـ قَبْرَة : Cabra :

كورة من أعمال الأندلس . تتصل بأعمال قرطبة من قبليّها ، وهي أرض زكية ، تشتمل على نواحٍ كثيرة ورساتيق ومدن ، وهي مخصوصة بكثرة الزيتون . وقصبتها : بَيَّانة (٨٩) .

٧٤ ـ بَيَّانَة : Bayonne :

قصبة كورة قَبْرَة ، وهي كبيرة حصينة على ربوة ، يكتنفها أشجار وأنهار ، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا (٩٠) .

٧٥ ـ قَلَهُرَّة : Calahorra :

مدينة من أعمال تُطيلة ، شرقي الأندلس (٩١) .

٧٦ ـ قلعة أيوب : Colatayud :

مدينة عظيمة ، جليلة القدر بالاندلس بالثغر ، ينسب إليها فيقال : ثغريّ ، من أعمال سرقسطة ، بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع ، ولها عدة حصون . وبالقرب منها مدينة : لبلة (٩٢) .

(٨٧) معجم البلدان (٢ / ٢٥٣) .
(٨٨) معجم البلدان (٧ / ١٥٤) .
(٨٩) معجم البلدان (٢ / ٢٦) .
(٩٠) معجم البلدان (٢ / ٣١٩) .
(٩١) معجم البلدان (٧ / ١٥٣ ـ ١٥٤) .
(٩٢) معجم البلدان (٧ / ١٤٨ ـ ١٤٩) .

٧٧ ـ قلعة رَباح : Calatrabva :

مدينة بالأندلس ، من أعمال طليطلة ، تقع في غربي طليطلة ، ولها عدة قرى ونواحٍ ، ويسمونها : الأجزاء ، أي الأقاليم ، والجزء هو الأقليم في المصطلحات الاداريّة الأندلسيّة (٩٣) .

٧٨ ـ جبل طارق : Gibraltar :

ويُطلق عليه أيضاً اسم : جبل الفتح ، ولجبل طارق قصب السّبق بنسبته إلى طارق بن زياد ، إذ كان أوّل ما حلّ به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجوّن البحر هناك مستديراً حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء (٩٤) .

٧٩ ـ المنكَب : Almunacar :

بلد على ساحل جزيرة الأندلس ، من أعمال إلبيرة ، بينه وبين غرناطة أربعون ميلا (٩٥) .

٨٠ ـ الشَوْذَر : Jodar :

مدينة بين غرناطة وجيّان بالأندلس (٩٦) .

٨١ ـ مَجْرِيْط : Magerit :

بلدة بالأندلس (٩٧) .

٨٢ ـ مِيرْتلة : Mertola :

حصن من أعمال باجة ، وهو أحمى حصون الأندلس وأمنعها ، من الأبنية القديمة ، على نهر آنا : (٩٨) .

---

(٩٣) معجم البلدان (٢ / ٢٢٠) و (٧ / ١٥٠) .
(٩٤) نفح الطيب (١ / ١٥٩ ـ ١٦٠) .
(٩٥) معجم البلدان (٨ / ١٨٤) .
(٩٦) معجم البلدان (٥ / ٣٠٦) .
(٩٧) معجم البلدان (٧ / ٣٨٨) .
(٩٨) معجم البلدان (٨ / ٢٢٤) .

٨٣ ـ مُنْتَشُون : Monzon :

حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم ، بينه وبين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جداً (٩٩) .

٨٤ ـ مُنْت لُون : Mentileon :

حصن بالأندلس ، من نواحي جَيّان (١٠٠) .

٨٥ ـ ترْجِيلَة : Trujillo :

مدينة بالأندلس من أعمال ماردة ، بينها وبين قرطبة ستة أيام غرباً ، وبينها وبين سمُّورة ستة أيام (١٠١) .

٨٦ ـ شَنْتَمَرِيّة الشَرق : Santa Maria de Albarracin :

مدينة في الأندلس تقع قرب فروع نهر إبْرُه Ebro إلى الشرق من مدينة شَنْتَبَرِيّة Santaber شمال شرق مدريد . (١٠٢)

٨٧ ـ شَنْتَمَرِيّة الغرب : Santa Moriaa de Algarbe :

مدينة تقع جنوبي البرتغال ، وهي حالياً مدينة فارو (١٠٣) . Faro.

٨٨ ـ شَنْتَبَرِيّة : Santaber :

مدينة أندلسية تقع غربي مدينة شَنْتَبَرِيّة الشرق (١٠٤) .

٨٩ ـ طَلُوزة : Toulouse :

ويسميها قسم من المؤلفين العرب : تولوز وتولوشة ، وطولوشة ، وهي

---

(٩٩) معجم البلدان (٨ / ١٧١) .
(١٠٠) معجم البلدان (٨ / ١٧١) .
(١٠١) معجم البلدان (٢ / ٣٧٦) .
(١٠٢) الحلل السندسية (٢/١٠٠) وابن الأبار (٢/١٠٢ وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٩) .
(١٠٣) الروض المعطار (١١٤) والآثار الأندلسية (٣١٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٩) .
(١٠٤) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٩) .

مدينة طواوز في جنوبي فرنسة (١٠٥) . وتسميها قسم من المراجع العربية طَرَسُونَة ؛ وطَرَسُونَة هذه ، من مدن تطيلة ، ولا علاقة لها بطلوزة (١٠٦)

٩٠ ـ شَاطِبَة : Xatiba — Jatiba :

مدينة في شرقي الأندلس ، وشرقي قرطبة ، وهي مدينة كبيرة قديمة ، ويعمل فيها الورق الجيّد ، ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس (١٠٧) .

٩١ ـ طُرُش : Torrox :

ناحية بالأندلس ، تشمل على ولاية وقرى (١٠٨) .

٩٢ ـ بُرذِيل : Beaurdeaux :

مدينة في جنوبي غربيّ فرنسة (١٠٩) .

٩٣ ـ الأرض الكبيرة :

اصطلاح جغرافي أندلسي ، يطلق على الأرض فيما وراء جبال البُرْت ، وقد يشمل المنطقة التي خلف هذه الجبال حتى القسطنطينية كلّها او بعضها(١١٠)

---

(١٠٥) تاريخ غزوات العرب للأمير شكيب أرسلان (١٣) .

(١٠٦) معجم البلدان (٦/٤١) والروض المعطار (١٢٣) والحلل السندسية (٢ / ١٧٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩١) .

(١٠٧) معجم البلدان (٥ / ٢١٤) .

(١٠٨) معجم البلدان (٦ / ٤١) .

(١٠٩) الروض المعطار (٤١) وآثار البلاد واخبار العباد (٥٧٩) والحلل السندسية (١ / ٥٦) ونفح الطيب (١ / ١٢٨) .

(١١٠) طبقات الأمم (٦٣ ـ ٦٤) لصاعد الأندلسى ، وأوضح المسالك (٣٨ وجه و ٤٦ وجه) لسباهى زادة وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٧) ، ولا يبدو من الصواب ، أن الكتاب المسلمين ، كانوا يستعملون اصطلاح : الأرض الكبيرة للأشارة الى قَلَوْرِيَّة ـ (Alabria) جنوبى ايطاليا ، كما يقول فى مواقف حاسمة (٩١) وكرد على فى الحضارة الأسلامية والعربية (١ / ٢٧٤) .

٩٤ ــ المنارة : برج هَرِقْل : Torre de Hércules :

والمنارة هي برج هِرَقل الذي لا يزال قائماً حتى اليوم في مدينة لاكرونيا La Coruna الواقعة على المحيط الأطلسي (١١١) .

٩٥ ــ بَرْبَشْتَر : Berbastro :

بربشتر من بلاد بَرْبطانِيَة الأندلسية ، وحصن بربشتر على نهر إِبْرُه ، وبربشتر من أمّهات مدن الثغر الفائقة في الحصانة البائنة في الأمتناع ، ولها حصون (١١٢) .

٩٦ ــ أُقْلِيش : Aclés :

مدينة بالأندلس ، من أعمال شَنْتَبَرِيَّة ، وقال الحميدي : بليدة من أعمال طليطلة (١١٣) .

٩٧ ــ قُونْكَة : Ceuenca :

مدينة بالأندلس ، من أعمال شَنْتَبرِيَّة (١١٤) ، وهي غير بعيدة عن طليطلة . وكان العرب قد عمروها (١١٥) .

٩٨ ــ البَسِيطَة : Albacete :

مدينة تقع في الجانب الشرقي من طليطلة ، وهي كاسمها في بسيط من الأرض ، وتنقسم إلى قسمين : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والجديدة في أسفل القديمة (١١٦) .

---

(١١١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٧) .
(١١٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٩٢ ــ ٩٥) .
(١١٣) معجم البلدان (٣١٣/١) والحلل السندسية (٤٥/٢ ــ ٤٨) .
(١١٤) معجم البلدان (٧ / ١٨٦) .
(١١٥) الحلل السندسية (٤٨/٢) .
(١١٦) الحلل السندسية (٤٨/٢) .

٩٩ ـ شَنْتَجَالَة : Chinchilla

مدينة على مقربة من البسيطة ، وهي معروفة جداً في أيام المسلمين ، وموقعها على مسافة (٢٩٨) كيلو متراً من مجريط ، ولها حصن مرتفع على رابية تعلو مائتي متر ، وبجانب هذا الحصن كهوف كثيرة مسكونة ، وهناك من يلفظها : شَنْتَجِيْل (١١٧) .

١٠٠ ـ ليون : Leon :

من المدن الشهيرة في الأندلس ، ولها مقاطعة يقال لها : مقاطعة ليون . وهي من المدن القديمة ، وكنيستها الجامعة من أبدع محدثات الأسلوب القوطي في البناء ، وفيها آثار تدل على عظمتها السالفة (١١٨) .

١٠١ ـ طَلَمَنْكَة : Salamanqua :

بلدة متوسطة في شمالي الأندلس ، وكانت قاعدة ليون ، وقد اختطّها محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام (١١٩) .

١٠٢ ـ زَمُوْرَة : Zamora :

مدينة في الأندلس ، تقع على مسافة ستين كيلومتراً من طلمنكة ، مبنيّة فوق صخرة عالية ، يجري تحتها الوادي الجوفيّ ، وكانت من قديم الزّمان قلعة منيعة (١٢٠) .

١٠٣ ـ كُوْرنِيَّة : Corigna :

مدينة أندلسية ، وهي مركز لمقاطعة بهذا الاسم ، واقعة على لسان من الأرض ، بين جونين من البحر ، أحدهما إلى الشرق اسمه : الباهية ، والآخر

---

(١١٧) الحلل السندسية (٤٩/٢) .
(١١٨) الحلل السندسية (٥١/٢) .
(١١٩) معجم البلدان (٥٥/٦) والحلل السندسية (٥١/٢ ـ ٥٤) .
(١٢٠) الحلل السندسية (٥٥/٢ ـ ٥٧) .

إلى الغرب اسمه : اورزان . وكان للبلد حصون مهملة الآن، وهي مدينة قديمة ، وكانت في أيام المسلمين تابعة لقرطبة (١٢١) .

١٠٤ ـ الحَمَّة : Alhama :

على مسافة (٢١٩) كيلومتراً من مجريط إلى الشرق ، وعلى مقربة من أريزة ، توجد الحُمَّة ، حَمّة أراغون ، فيها مياه معدنية سخنة ، ومن ذلك اسمها : الحَمَّة (١٢٢) .

١٠٥ ـ اراغون : Aragon :

مملكة إسبانية في شمالي الأندلس ، على نهر اِبْرُهْ ، وهي مقاطعة سرقسطة ، ومساحتها (١٧٤٢٤) كيلو متراً مربعاً . ومقاطعة وشقة ومساحتها (١٥١٤٩) كيلومتراً مربعاً ومقاطعة ترول (١٢٣) .

١٠٦ ـ نبارة : Navarre :

مملكة إسبانية في شمالي الأندلس . على نهر إِبْرُهْ ، مجاورة لمملكة أراغون . وهذه المملكة القديمة ، أصبحت مقاطعة إسبانية تحمل هذا الاسم في الوقت الحاضر . مساحتها (١٠٥٠٠) كيلومتر مربع (١٢٤) .

١٠٧ ـ ترْوْل : Teruel :

مدينة تقع على مسافة (١٣١) كيلومتراً من قلعة أيوب ، وهي جنوبي قلعة أيوب . وهذه المدينة هي مركز جنوبي أراغون ، وموقعها على وادي الأبيار . وفيها آثار أسوار من القرون الوسطى ، وفيها قناة معلّقة ، وهي إلى الشرق من مملكة بلنسية القديمة (١٢٥) .

---

(١٢١) الحلل السندسية (٢/٥٩ ـ ٦١) .
(١٢٢) معجم البلدان (٢/٣٤٤) والحلل السندسية (٩٠ ـ ٩٣) .
(١٢٣) الحلل السندسية (٢/٦٨) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٥٧) .
(١٢٤) الحلل السندسية (٢/٦٨ ـ ٦٩) .
(١٢٥) الحلل السندسية (٢/١٠٠) .

١٠٨ ـ جَرِيقة : Gerica :

بلدة على نهر المجر ، بالقرب من مدينة تِرول (١٢٦) .

وهذه المدن الأندلسية التي ذكرتها ، هي التي يتردّد ذكرها في الفتوح ، وفي المعارك التي جرت بين المسلمين والأسبانيين بعد ذلك ، شرحتها بأيجاز ، وأشرت إلى المصادر التي اقتبست منها تلك الشروح المبسّطة ، التي تفيد المؤرّخ في تتبّع حوادث الفتوح والمعارك . وقد تعمّدت أن تكون الشروح مختصرة مبسّطة ، حتى ابتعد عن الأطالة ، دون أن أحرم المؤرخ من تهيئة المعلومات الضرورية له ، لفهم حوادث الفتوح والمعارك .

ومع ذلك ، فالمصادر البلدانية العربية وغير العربية ، متيسِّرة جداً ، لمن أراد التوسّع .

وقد أغفلت ذكر قسم من المدن الأندلسية ، لأنّ ذكرها لا يرد في الفتوح والمعارك ، فيما اطلعت عليه . فأذا اطلع غيري على أسماء مدن وردت في مصادر ومراجع قديمة أو حديثة لم أطلع عليها . فبأمكانه استشارة مصادر البلدانيين العرب والمسلمين ، حيث سيجد فيها ضالته بأذن الله .

ومعذرة إن كنتُ قصّرت ، فذلك ما استطعت أن أقدّمه ، وفوق كلّ ذي علم عليم .

٣ ـ الثغور الأندلسيّة

الثّغر ، وجمعها ثغور : كلّ موضع قريب من ارض العدو يُسمى ثَغْراً ، كأنّه مأخوذ من الثُّغرة ، وهي الفُرجة في الحائط (١٢٧) .

والثّغر ما يلي دار الحرب ، وموضع المخافة من فروج البلدان . والثّغر :

(١٢٦) الحلل السندسية (٢/١٠٠) .

(١٢٧) معجم البلدان (٣ / ١٦) .

الموضع الذي يكون حدّاً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفّار ، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد (١٢٨) .

والثغور : أطراف البلاد التي يخشى عليها خطر الغزو برّاً أو بحراً ، وأطلق العرب كلمة الثغور على المدن الحصينة ، لاسيّما التي كانت تقع بالقرب من حدود الدولة الأسلامية المجاورة لبلاد الأعداء (١٢٩) .

واستعمل الأندلسيون اصطلاح الثُّغور ، للدلالة على حدودهم المجاورة لأسبانيا المسيحيّة ، فكانت في الأندلس ثلاثة ثغور :

آ ـ الثغر الأعلى :

ويشمل سَرَقُسْطَة ، عاصمة هذا الثّغر ، ولارِدَة وتُطِيْلَة ووَشْقَة وطُرْطُوْشَة وغيرها .

وكان هذا الثّغر يواجه بَرْشَلُوْنَة ومملكة نافار ، وتمثّله اليوم مملكة أراغون Aragon (١٣٠)

ب ـ الثغر الأوسط :

وكان يواجه مملكتي ليون وقشتالة ، وكانت عاصمته أوّل الأمر مدينة سالم ، ثم أصبحت العاصمة مدينة طُلَيْطُلَة .

ج ـ الثغر الأدنى :

ويشمل المنطقة الواقعة بين نهري دُويره وتَاجُه ، ومن مدن هذا الثّغر : قُوْرِيَة وقُلُمْرِيَّة وشَنْتَرِيْن وماردَة (١٣١) .

---

(١٢٨) لسان العرب (٥ / ١٧١) .

(١٢٩) أحمد عطية ـ القاموس الأسلامي (١ / ٥٣٨) ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

(١٣٠) الآثار الأندلسية (٧٨) والحلل السندسية (١/٢٠٦) و (٢/١١٤) . وجغرافية الأندلس واوروبا (٩٤ ـ ٩٥) .

(١٣١) المقتبس (٦٨ و ٢١٨) ودولة الاسلام (١ / ٢٢٨ و ٣٣٥) وجغرافية الأندلس واوروبا (٩٤ ـ ٩٥) و .
Lévi - Provencal, Histoire de L' Espagne Musulmane, I, P. 209, 111, PP. 55 58.

وقد كان رباط الثّغر أيام فتح الأندلس ، يشمل أربونة وماحولها ، باعتبارها أقصى ولاية في الأندلس المسلمة ، مما يلي أرض الفرنج . فلما سقطت أربونة بيد النّصارى ، ارتدّ ثغر الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ، فأصبح الثغر يُطاق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو : الثغر الأعلى،ويشمل المدن المحصّنة التي ذكرناها قبل قليل ، وكان يقابل : أراغون من ولايات إسبانيا النصرانية الحديثة . كما سميت طليطلة وأعمالها بالثغر الأوسط ، لمجاورتها لمملكة ليون (جِلِّيقيّة) النصرانية (١٣٢) .

وهكذا ، كلما تقدم المسلمون في فتوحهم ، تقدّمت ثغورهم لتكون بتماس مباشر بالعدو الغازي ، دفاعاً عن البلاد المفتوحة وسكّانها المسلمين . وكلمّا انحسر مدّ الفتوح وخسر المسلمون ثغورهم الأمامية المتقدّمة ، تراجعت ثغورهم ، فأصبحت المدن التي لم تكن ثغوراً بعد انحسار مدّ الفتوح ثغوراً جديدة ، لتكون أيضاً بتماس مباشر بالعدو الغازي ، حتى جاءت أيام خسر فيها المسلمين الأندلس ، وأصبحت مدن السّاحل الأفريقي المواجهة للأندلس النصرانية ، ثغوراً جديدة للدفاع عن المغرب وإفريقية .

وقد اهتم ولاة الأندلس وخلفاؤها بتحصين المدن وإنشاء القلاع وإقامة الأسوار وإنشاء مدن جديدة محصنة وبخاصة في شمالي الأندلس ، كما ذكرنا في الحديث عن المدن ، شيئاً يدّل على ذلك ، وقـد فتح المسلمون الأندلس بأرادة القتال في جهادهم الأسلامي : فكانوا يقاتلون بأخلاقهم المحاربة لا بالعَدد أو العُدَد ، فلما تخلوّا عن إرادة القتال في الجهـاد ، وتنكروا لأخلاقهم المحاربة ، وركنوا إلى الانحلال والانحراف ، خسروا كلّ شيء ، ولم تُغن عنهم حصونهم شيئاً ، وهذا هو الدرس البليغ الذي ينبغي إن نتعلمه من فتوح الأندلس ، ومن جلاء المسلمين عنها .

---

(١٣٢) دولة الأسلام (١ / ٢٢٨) .

٤ ـ جبال الأندلس

شبه جزيرة الأندلس ، عبارة عن هضبة ، تخترقها شرقا وغربا سلاسل من الجبال . يوازي بعضها بعضاً . وتتخلّلها أودية ضيّقة ، تنساب فيها الأنهار (١٣٣) .

ومن جبالها المشهور بالعظم ، جبل إلْبِيرَة ، وهو جبل الثلج ، متصل بالبحر الأبيض المتوسط من جهة الشرق ، ومنتظم بجبل رَيُّهْ ولاصق بالجزيرة الخضراء مع البحر . ويذكر ساكنوه أنهم لايزالون يرون الثلج نازلاً فيه شتاءً وصيفاً . وهذا الجبل يُرى من أكثر بلاد الأندلس ، ويُرى من عَدْوَة البحر ببلاد البربر (١٣٤) . وجبل الثلج هو جبال نيفادا (Névado) أو جبل شَلِيْر ، وأصل هذه اللفظة هو سولوريوس (Solarius) (١٣٥) ، وهو يُطل على مدينة غَرْنَاطة (١٣٦) ، وطول الجبل يومان ، وعلوّه في غاية الارتفاع (١٣٧) . وفي هذا الجبل أصناف الفواكه العجيبة ، وفي قراه المتصلة به يكون أفضل الحرير والكتّان الذي يفضل كتّان الفيّوم(١٣٨).

ومن جبالها ، جبل البُرْت ويسمى أيضاً : جبل البرنات أو البرنية (Pyrenees) . وهو الحدّ الفاصل بين إسبانيا وفرنسة ، ومبتدؤه من بحر

(١٣٣) اسمذار ـ الجغرافية العمومية (٢٨٩) ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ .
(١٣٤) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٤ ـ ٨٥) وانظر نفح الطيب (١ / ١٤٨) .
(١٣٥) الحلل السندسية (١/٣٦ ـ ٣٧) ، وكلمة (Solarius) اللاتينية تعني : الشمس ، لانعكاس أشعة الشمس على ثلوجه . أما سيرا نيفادا ، فتعني : الجبال الثلجية ، انظر الهامش (٣) من نفح الطيب (١ / ١٤٨) .
(١٣٦) نفح الطيب (١ / ١٧٧) .
(١٣٧) الحلل السندسية (١/١٢٩) .
(١٣٨) جغرافية الأندلس واوروبا (٨٥) ، والفيوم : ولاية غربية بمصر بينها وبين الفسطاط أربعة أيام ، انظر معجم البلدان (٦ / ٤١٤) .

الأبيض المتوسط المجاور لمُرْطوشَـة ، ومنتهاه إلى البحر الغربيّ بين الأَشْبُونَـة وجِـلَّـيْـقِـيّة (١٣٩) ، وطوله أربعون ميلا (١٤٠) .

وارتفاع جبل البرت يتدرّج من المكان الذي يقال له : رون (Rhune) (٣٤٠٤) أمتار ، وهي أعلى قمة في الجبال المسماة بالجبال الملعونة ((Maidits) وفي جميع السلسلة . وهناك قمم أقلّ ارتفاعاً مثل قمـّة : آني (Anie) التي علوّها (٢٥٠٤) أمتار ، وقمـّة : (أو ساو (Ossau) وعلوّها(٢٨٨٥) متراً ، وقمّـــة (بَلاطس Balaitous) وعلوّها (٣١٤٦) متراً ، وذروة : (فينمـــال (Vignemale) وعلــوّها (٣٢٩٨) متـــراً ، وذروة : (الجبـل الضـــائع (Mont Perdin) وعلـوها (٣٣٥٢) متراً ، وقمـّة : (بوزانس (Posets) وعلوّها (٣٣٦٧) متراً .

أمـا المعابر في جبل البرت ، فهي تعلو بحسب علوّ الجبال ، وتكثر عقابها ، ويمـرّ السائر فيها بكثير من كثبان الثلوج ، ومن المعابر معبر : (مركادو Marcadau) ارتفاعه (٢٥٥٦) متراً (١٤١) وفيه عدّة معابر أخـرى .

وهناك جبل الشّرف ، الذي يُطلّ على إشْبِـيلِيَـة ، وهـو جبل كثير الشّجر والزيتون وسائر الفواكه (١٤٢) طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب اثنا عشر ميلاً ، يشتمل على مائتين

---

(١٣٩) جغرافية الأندلس واوروبا (٨٥) ، ويسمى خطأ بجبال البرانس ، اذ أن جبال البرانس (جبل المعدن (Sierra de ALmadén تقع شمالى قرطبة .

(١٤٠) الحلل السندسية (٢٦٧/١) .

(١٤١) الحلل السندسية (١٠٨/٢ ــ ١١١) .

(١٤٢) معجم البلدان (١ / ٢٥٤) .

وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت (١٤٣) .

وهناك عدّة جبال في الأندلس ، اقتصرنا على ذكر أهمها .

٥ ـ الأنهار

آ ـ نهر اِبْرُهْ : Ebro :

يقع هذا النهر في شمال شرق شبه الجزيرة الأندلسيّة ، ويصبّ في البحر الأبيض المتوسط . عند مدينة طُرْطُوشَة (Toytosa) (١٤٤)، وكانت مملكة أراغون (Aragon) ونبارة (Nabara) يرتويان من هذا النهر . ولهذا النهر منبعان : أحدهما يقال له : هيجار (Higar) ، يتفجّر من جبل يقال له : كورد ((Cardel) عليه الثلج صيفاً وشتاء ، وتنحدر منه مياه إلى الوادي الجوفيّ ، منحدرة إلى الغرب ، ومن مياهه ما ينحدر إلى الشرق ، وهي مياه هيجار التي تجرى مسافة ستة عشر كيلو متراً ، ثم تلتقي مع مياه إبره ، التي تنبع من غربيّ مكان يقال له : رينوزه (Reinosa) : وهذا الوادي يخرج من بحيرات صغيرة بين تلك الجبال المتفرعة من جبال البُرْت . ثم تمد إبره عدّة أنهار . حتى يعدل ماؤه عندما يصل إلى ميراندة بعشرين ألف متر مكعب في الثانية . وعندما يصل إلى لوكرونى بواحد وثلاثين ألف متر مكعب في الثانية ، فأذا وصل تُطِيلَة صار يصب (٤٥٢٠٠) متر مكعب في الثانية . وهو يسقي عند تطيلة جانباً من بسيط أراغون الذي لولاه لكان أشبه بصحراء إفريقيّة (١٤٥) ، كما يسقي مدينة سرقسطة (١٤٦) . ومدينة ناجِرَة (١٤٧) . وهي مدينة في شرقي الأندلس

---

(١٤٣) الحلل السندسية (١ / ١٩٩) .
(١٤٤) جغرافية الاندلس واوروبا (٥٧) .
(١٤٥) الحلل السندسية (٢ / ٦٨) و (٢ / ١١٤) .
(١٤٦) الحلل السندسية (٢ / ١١٨) و (٢ / ١١٩ و (٢ / ١٢١) .
(١٤٧) الحلل السندسية (٢ / ١٧٧) .

من أعمال تُطيلة (١٤٨) .

ب ـ الوادى الكبير : Guadilquibir :

ينبع نهر الوادي الكبير من الجبال الوسطى في الأندلس ، ويصب بحذاء بَطَلْيَوْس (Badajoz) بقرب خليج قادس (Cadix) (١٤٩) .

ج ـ نهر تاجُه :

ينبع من جبال البرت ، ويصب في المحيط الأطلسي ، وتقع عليه مدينة طُلَيْطُلَة (١٥٠) ، ومدينة طَلَبِيْرَة (١٥١) ، ولشبونة (١٥٢) (إشبونة (Lisbonne أو (Lisboa) .

وهذا النهر يخرج من ناحية الجبال المتّصلة بالقلعة (١٥٣) والفنت (البونت Alpuente). فينزل ماراً باتجاه الغرب إلى مدينة طليطلة ، ثم إلى طلبيرة (Talebera de la Reina)' ، ثم إلى المخاضة ، ثم إلى القنطرة (Alcantra)' ، ثم إلى قُنيطرة محمود ، ثم إلى مدينة شنترين (Sanlaren)' ، ثم إلى لشبونة ، فيصبّ هناك في البحر (١٥٤) .

د ـ النهر الأبيض :

ينبع من جبال البرت (١٥٥) ، ويمرّ بمدينة مُرْسِيَة (١٥٦) ، ويمر هذا النهر بحصن أفرد (Ferez) ثم إلى حصن مُولَة (Mula) ثم إلى

---

(١٤٨) معجم البلدان (٨ / ٢٣٥) .
(١٤٩) الحلل السندسية (١ / ٢٨) .
(١٥٠) جغرافية الأندلس واوروبا (٨٧) .
(١٥١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٩) .
(١٥٢) الحلل السندسية (١ / ٩٢) .
(١٥٣) المقصود بها : قلعة كبريال ، وهى الى الشمال الغربي من : الفنت التى يسميها الأسبان : البونت (Alpuente) انظر الحلل السندسية (١ / ١٠٤) .
(١٥٤) الحلل السندسية (١ / ١٠٤) .
(١٥٥) الحلل السندسية (١ / ١١٦) .
(١٥٦) الحلل السندسية (١ / ١١١ و (١ / ١١٤) .

مرسية ، ثم إلى المَدُوْر ، إلى البحر (١٥٧) .

و ـ المجمل :

وهناك عدّة أنهر ، لامجال للدخول في تفصيلاتها ، ولكن لابأس من ذكر أسمائها فقط ومَن أراد التفصيل ، يرجع إلى المصادر المعتمدة حولها .

من هذه الأنهر ، نهر لارِدَة الذي فيه معدن الذهب (١٥٨) ، ونهر أرلَنِسون (Arlençon) تراه أكثر السنة شحيحاً ، ولكن له فيضانات مدهشة ، ويسقي مدينة بُرْغُش (١٥٩) (Burgos) . ونهر أريسمة الذي يسقي مدينة شَغُوْبِيَّة (١٦٠) (Ségovia) ، وهي من مدن قشتالة . ونهر برباط ، وهو الذي يمرّ بقرب الموضع المسمى اليوم : (Alola de Los Gazules) (١٦١) . ونهر بكّة (Bacca) ، وبكّة بالقرب من الطرف الأغرّ (١٦٢) ونهر بسيورقة الذي تقع على ضفته اليمنى : بلد الوليد (Volladolid) ، وهذه اللفظة عربية محرّفة من : بلد الوالي ، وهكذا سمّاها العرب ، فأضاف إليها الأسبان حرف الدال ، فصار الأنسان يتوهم أنها بلدة بناها رجل يقال له : الوليد . وهي اليوم مركز مقاطعة بهذا الاسم (١٦٣) . ونهر بلون (Guadalellon) على بُعد ميل من مدينة جَيَّان ، وهو نهر كبير ، عليه أرحاء كثيرة جداً (١٦٤) . ونهر بيداسوا (Bidassoa) ، وهو الحدود بين إسبانيا وفرنسة من جهة الشمال الغربي ، وهو يجري بين هنداي

(١٥٧) الحلل السندسية (١ / ١١٧) .
(١٥٨) جغرافية الأندلس واوروبا (١٢٩) .
(١٥٩) الحلل السندسية (١ / ٣٣٤) .
(١٦٠) الحلل السندسية (١ / ٣٦٠ ــ ٣٦١) .
(١٦١) الحلل السندسية (١ / ٨٢) .
(١٦٢) الحلل السندسية (٨٣/١) .
(١٦٣) الحلل السندسية (٣٣٨/١ ــ ٣٣٩) .
(١٦٤) الحلل السندسية (١ / ١٢٨) .

(Hendaye) وفونترابية (Fontarabie) ، وهنـاك جزيرة اسمـها : الحجل ، في وسط هذا النهر ، واتفقت فرنسة وإسبانيا من قديم الزمان على جعلها منطقة محايدة (١٦٥) . ونهر الوادي الجوّفي ، أي نهـر دورو (Douro) ، وأول منابع هذا النهر مكان يقال له : أوربيـون (Urbion) على علوّ (٢٢٥٥) متراً عن سطح البحر ، بين شارات دمندار (Demanda) وشارات سان لورانزو (Lorenzo) وشارات سيبوليرا (Cebollera) ، وهي التي تنحدر منها مياه نهر إبره أيضاً . وأصـل اسمه : دورو (Duero) مشتق من لفظة : دور (Dour) ، ومعناها : الغزارة . والنهر الجوفي هذا يجري على ارتفاع سبعمائة متر فوق سطح البحر ، فهو يسقي بسائط في غاية الاتّساع ، إلى أن يصل إلى بلد وليد ، التي هي على يمينه وفي أوّل مجراه ، ينحدر انحداراً خنيفاً حتى يصل إلى الحدود بين إسبانيا والبرتغال ، فهو ينصبّ هناك بحريّة شديدة ، في مضايق تجعل منه نهراً هائلاً ، ويصير مجراه في غاية العمق ، وفي بعض الأماكن ترتفع ضفافه مائتي متر عن سطح المياه ، وأحياناً تتقارب الضفتان تقارباً شديداً ، وينحصر الماء انحصاراً عجيباً . وتتكون من هذا الوادي شلاّلات ، لو استخدمت قوّتها الكهربائية لجاءت بالخوارق . ولكن عندما يدخل في بلاد البرتغال ينبسط في الأراضين ، ويعود هادئاً . وللوادي الجوفيّ أنهر تمدّه من اليمين ومن الشمـال ، منهـا : دوراتون (Duraton) ، وسيخة (Cega) . وأداجـة (Adaja) ، وزاباريتيال (Zapartiel) ، وطور ماس (Tormes). (١٦٦) ونهر حَدرُه (Darro) الذي يشقّ مدينـة غرناطة إلى نصفين ، وعلى جنوبيهـا وادي الثلـج المسمى : شنيـل (Xenil) (١٦٧) ومبـدأه من

---

(١٦٥) الحلل السندسية (١ / ٣٢٨) .
(١٦٦) الحلل السندسية (١ / ٣١٨ — ٣١٩) .
(١٦٧) الحلل السندسية (١ / ١٢٩ و ٢١٥) .

جبل شيلر وهو جبل الثلج . ونهر نرفيون (Nervion) الذي تقع عليه بلدة بيلباو (Bilbao) قاعدة مقاطعة بسكاي (١٦٨) . ونهر شَقْر (Rio Jucar) الذي تقع عليه مدينة بَلَنْسِيَة في جنوبيّ الأندلس (١٦٩) ، ونهر شَقْر (١٧٠) هو الذي فيه جزيرة شَقْر ويقع عليه حصن قلبيرة (Cullero) (١٧١) . ونهر الملاّحة التي تقع عليه مريّة بليش ، ويسميها الأسبان (Torredel Marre) ، وهـذا النهر يأتي من ناحية الشمال ، فيمر بالحَمّة ، ويصل بأحواز حصن صالحة (Saliha أو Zalia) وقد خُرِّب بعد جلاء العرب عن غرناطة ، فيقع في هذا النهر جميع مياه صالحة ، وتنزل إلى قرية الفشاط (Al - Fachat ، وتصبّ هناك في غربيّ حصن مرية بلّش في البحر (١٧٢) . ونهر ملبال ، وقلعة ملبال تقع على نهر ملبال ، وهو نهر مدينة فرنُجلوش (Hornachuelos) ، ويؤدي هذا النهر إلى حصن المدور إلى قرطبة (١٧٣) . ونهر منديق (Mondego) ، الذي تقع عليه مدينة قُلُمْرِيَّة ، وهي في نهاية الحصانة ، وجرية على غربيّها ، ويتّصل جرى هذا النهر إلى البحر ، وعلى مصّبه حصن مُنْتَمَيُوْرْ (Montemayor) ولها على النهر أرحاء (١٧٤) ونهر ميل الذي تقع عليه مدينة المنكب (Almunécar) وهي مدينة حسنة متوسطة كثيرة

---

(١٦٨) الحلل السندسية (١ / ٢٣١ ــ ٢٣٢) .

(١٦٩) الحلل السندسية (١ / ٣٠ و ١٠٩ و ١١٠ و ٣١٩) .

(١٧٠) الحلل السندسية (١ / ٣٠) .

(١٧١) الحلل السندسية (١ / ١٠٩ ــ ١١٠) .

(١٧٢) الحلل السندسية (١ / ١٢٣) .

(١٧٣) الحلل السندسية (١ / ١٣٥ ــ ١٣٦) .

(١٧٤) الحلل السندسية (١ / ٩١ ــ ٩٢) . وجزيرة شقر : جزيرة في الأندلس ، انظر معجم البلدان (٥ / ٢٨١) .

مصايد السمك ، وبها فواكـه جمّـة (١٧٥) . ونهـر مينو (Minha) ، وهو ينحدر إلى المحيط الأطلسي وينصبّ فيه (١٧٦) ، ونهر شنقورينة المشتق من نهر شَقَر ، ويصبّ في البحر الأبيض المتوسط(١٧٧) ، ونهر وادي يانَة (Guadiana) الذي يصب في المحيط الأطلسي ، وهو نهر ماردة وبطليوس ، وعليه حصن مارتُلة (Martolo) المشهور بالمنعة والحصانة ونهر يانة نهر كبير ، ويسمى النهر الغؤر ، لأنّه يكون في موضع يحمل السفن ، ثم يغور تحت الأرض ، حتى لايوجد منه قطرة ، فسُمّي الغؤر لذلك ، وينتهي جريه إلى حصن مارتلة ، ويصبّ في قريب من جزيرة شليطش . وهذا النهر يمرّ بقرية يانة (Ana) إلى قلعة رَباح ، ثم يسير منها إلى حصن أرَنْدَة (Aranda) ومنه إلى ماردة ، ثم يمرّ بمدينة بطَلْيَوْس ، فيصير منها إلى مقربة من شريشة (Xeres de Estramadura) وهي غير شريش البلدة المشهورة بقرب إشبيلية التي ينسب إليها الشريشيّ شارح مقامات الحريري ثم يصير النهر إلى حصن مارتلة ، فيصبّ بالبحر المظلم (وهو المحيط الأطلسي) ، ويمرّ بالأصل في بدايته بقشتالة الجديدة (١٧٨) . ونهر شطوبر (Chetubar) على اسم مدينة بهذا الاسم تقع عليه ، وهو نهر كبير تصعد فيه السُّفُن والمراكب السفرية كثيراً (١٧٩) . ونهر آرغة (Araga) ، الذي تقع عليه مدينة بَنْبُلُونَة ، وينبع من جبال البرت ومن تلك الجبال ينبع نهر جِلِّق

---

(١٧٥) الحلل السندسية (١ / ١٢٢) ، ومدينة المنكب : بلد على ساحل جزيرة الأندلس ، من أعمال إلبيرة ، بينه وبين غرناطة أربعون ميلاً ، انظر معجم البلدان (٨ / ١٨٤) .

(١٧٦) الحلل السندسية (١ / ٢٨) .

(١٧٧) الحلل السندسية (١ / ٣٠) .

(١٧٨) الحلل السندسية (١ / ٢٨ و ٨٦ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٩ و ٣١٩) .

(١٧٩) الحلل السندسية (١ / ٨٨) .

(Gallego) الذي يمرّ بأراضي سَرَقُسْطَة ويتّصل بنهر إبره (١٨٠) .

والخلاصة ، أن قسماً من المؤرخين قالوا : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة أيام ؛ ويشقها اربعون نهراً كباراً ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالايُحصى . وفيها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلاثمائة من المتوسّطة ، وفيها من الحصون والقرى والبروج مالايُحصى كثرةً ، حتى قيل : إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية ، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً في يومه إلاّ بالأندلس . ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا(١٨١).

كما يقول ابن حوقل عن الأندلس : « .... تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرّخص والسّعة في الأحوال ... »(١٨٢) .

وكما يقول الرازي عنها : « ... طيّبة التربة ، مخصبة القاعة ، منبجسة العيون الثّرار ، منفجرة بالأنهار الغزار .. » (١٨٣) .

إنّ الأندلس ، لكثرة أنهارها وعيونها ، كانت كثيرة الخيرات ، خصبة كثيرة الزروع والأشجار ، جيدة الفاكهة والثمار ، تدر على الزرّاع أجود الحاصلات الزراعية ، وعليهم وعلى السكان مايحتاجون إليه مما تنبت الأرض .

السكّان :

من الأمثال المضروبة في اوروبة . أن جبال البُرْت (البُرْتات) أو كما

(١٨٠) الحلل السندسية (٢ / ١١٦) ، ويقرأ نهر آرغة بنهر أرقا ، انظر الحلل السندسية (٢ / ١٣٤ و ١٧٤) .

(١٨١) الحلل السندسية (١ / ٢٦٠) ، وانظر نفح الطيب (١ / ٢٠٨ – ٢٠٩).

(١٨٢) صورة الارض (١٠٤) ، انظر نفح الطيب (١ / ٢١١) .

(١٨٣) انظر نفح الطيب (١ / ١٤٠) .

يطلق عليها قسم من العرب : جبال البرانس (١٨٤) (Pyrénees) ، هي الحدّ الفاصل بين أوروبة وإفريقية . ويقولون : إذا تجاوزت معابر جبال البُرْت ، فاعلم أنّك قد دخلت إفريقية (١٨٥) .

والواقع أنّ هناك اختلافاً في الجغرافية الطبيعية بين الأندلس من جهة وأوروبة من جهة ثانية ، أما من ناحية السكّان ، قبل الفتح الأسلامي ، فلاشكّ في أنّ أهل الأندلس أوربيون من ناحية سلالتهم ، ولكنّ اختلاطهم بالبربر والأمم السّامية الأخرى ، قروناً طويلة ، جعل منهم أمّة وسطاً بين الشرق والغرب ، إذ يذهب كثير من المؤرخين الأجانب ، إلى أنّ الأيبيريين الذين هم سكّان إسبانيا الأولون ، هم والبربر من أصل واحد . ويستدلّون على ذلك بالتّشابه بين ذات الأمتين ، من ذلك مارواه سترابون من أنّ المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين ، وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق من البربر في صحراء إفريقية ، كما أنّ السليتين جاءوا من أوروبة الوسطى فاختلطوا بالأيبيريين ، كما أنّ قرطاجنّة أرسلت إلى اسبانيا مهاجرين كثيرين من إفريقية ، وقبل قرطاجنّة كان الفينيقيون قد عمروها ، وهكذا كان سكّان إسبانيا عناصر غربيّة تأتي من شمال جبال البُرْت ، وعناصر شرقية تأتيها من جنوبي مضيق جبل طارق (١٨٦) ، وتختلط هذه العناصر بالسكان الأصليين .

---

(١٨٤) تسمى هذه الجبال أحيانا : البرانس ، والظاهر أنها تسمية خاطئة ، لأن جبال البرانس تقع شمالى قرطبة ، وتعرف أيضاً بجبال المعدن (Sierra de Almadén) ، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥) و (١٢٩) والروض المعطار (١٤٢) ونفح الطيب (١ / ١٤٣) ودولة الأسلام فى الأندلس (١ / ٥٣ و ٨٢) وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (٢٦١) والتاريخ الأندلسى (٣٥) .

(١٨٥) الحلل السندسية(١ / ٢٤) .

(١٨٦) نفح الطيب (١ / ١٣٣) .

ثم إنه طرأ على إسبانيا جاليات يونانية – وبخاصة في أيام الأسكندر المقدوني الذي كان له جهود في فتح مضيق الزقاق أو بحر المجاز او مضيق جبل طارق (١٨٧) ، وقد نزلت الجاليات اليونانية في أقسام إسبانيا الشرقية (١٨٨) وتلاها جاليات رومانية غلبت على جميعها، وفي أثناء ذلك دخلها عدد كبير من يهود .

وبعد أن دخلها السليتيون واللاتينيون واليونان واختلطوا بسكانها الأيبيريين ، وجاء القرطاجنيون والفينيقيون ويهود من السلالات الآسيوية ، واختلطت هذه المجموعات البشرية ببعضها ، جاءنا موجات بشرية أهمها الفندالس والقُوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عندما فتحها المسلمون (١٨٩) .

واسم الأندلس مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود الى أصل جرماني . احتلت الأندلس حوالي القرن الثالث والرابع الميلاديين وحتى القرن الخامس الميلادي . فسميت باسمها : (Vandalusio) : أي : بلاد الوندال (١٩٠) .

واحتل القُوط الغربيون الأندلس في أوائل القرن الخامس الميلادي ، وهؤلاء القوط الغربيون (Visigolhs) هم الذين طردوا الوندال (Vandals) إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة من الأندلس ، فاستبد القوط بالحكم (١٩١) .

والقوط الغربيون ، قسم من القوط (Goths) ، وجماعة رئيسة من الجرمان . انفصلوا من القوط الشرقيين في أوائل القرن الرابع الميلادي ، وقد

---

(١٨٧) نفح الطيب (١ / ١٤٥ – ١٤٦) و (١ / ١٣٥) .
(١٨٨) الحلل السندسية (١ / ٢٥) .
(١٨٩) الحلل السندسية (١ / ٢٦) .
(١٩٠) التاريخ الأندلسي (٣٧) .
(١٩١) فجر الأسلام (٢) ودولة الأسلام في الأندلس (١/٢٧ – ٢٩) واوروبا العصور الوسطي – عاشور – (١/٨٨) .

توغلوا في شمالي إسبانيا ، ثم وسّعوا ممتلكاتهم الأسبانية على حساب الوندال ، وأخيراً أصبح تاريخ القوط الغربيين هو تاريخ إسبانيا ، واعتنقوا الكاثوليكية واندمجوا بالأسبان ، وكان آخر ملوكهم لُذَرِيق الذي هزمه طارق بن زياد (١٩٢) .

وكان البَشْكُنْس (Basques) وهم أمة عظيمة (١٩٣)، سكّان بلاد نافار (Navarra) التي كانت بَنْبُلُونَة (Panplona) عاصمة لها . وتقع نافار شرقي مملكة ليون محاذية لجبال البُرْت التي تفصل بين إسبانيا وفرنسة . وهم أمّة مستقلة بنفسها ، وأصل اسم هذه الأمة هو الباسقو نغادوس (Vascongados) ومنه اشتق اسمها الحالي : الباسلك أو الباسكس (Les Basques)، ومنهم مَن يتكلّم الأسباني أو الأفرنسي ، ولكن أكثرهم لا يتكلّمون بغير لغة البَشْكُنْس، وهم من أشدّ أمم الأرض استمساكاً بقوميتهم واحتفاظاً بخصوصيّتهم ، يزعمون أنّهم أقدم أمّة في أوروبة ، ولانزاع في أنّهم هم بقايا الشعب الأيبيري القديم ، والثمالة الخالصة المحصنة التي لم تدخل عليها شائبة من ذلك الشعب الأيبيري القديم . وهم أشداء جبليون ، موثقو الخَلْق ، تغلب عليهم السُّمرة ، إلا مَن كان منهم في أعالي الجبال ، فيَغلب عليهم اللّون الأشقر ، شُمّم الأنوف ، محدّدوا الأذقان ، شعورهم مائلة إلى السّواد ، لهم زيّ خاص بهم لايعرفون سواه ، بقيت منه حتى اليوم طاقية من الصوف يقال لها البوانا (Laboina) لايزالون يلبسونها على رؤسهم . وأما عاداتهم القديمة ، فمنهم مَن تركها ، ومنهم مَن لايزال يعضّ عليها بالنواجذ حتى اليوم ، فتجدهم يستعملون محاريثهم القديمة ، وعجلات تجرّها البقر ، وعليها نير

(١٩٢) الموسوعة العربية الميّسرة (١٤٠٧ ـ ١٤٠٨) ، وانظر نفح الطيب (١٣٧/١ ـ ١٤٠) .

(١٩٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (٧٩) .

مزخرف مغطىّ بجلد ضان . وعندهم نوع من الرقص في أعيادهم ومواسمهم يسمّونه أوريسكو (١٩٤) ، يجرونه على صوت مزمار صغير يسمى : دولسينيه (١٩٥) ، مع قرع الطبول .

والبشكنس من أشدّ أمم الأرض حباً للحريّة وأنفة من قبول الضيم ، وكما كانوا يردّون غارات المسلمين من الجنوب ، كانوا يردّون غارات الفرنج من الشمال ، وكانت مواقع بلادهم الجبلية ، تساعدهم على ردّ غارات تلك الأمم ، فأنّ مساكنهم أكثرها في الجبال ، تحيط بها الأوعار ، والأرض كما يقال تقاتل مع أهلها (١٩٦) . وهم الذين أوقعوا بجيش شارلمان عند سَرَقُسْطَة بعد أن عجز عن أخذها . ولم يخضع البشكنس للملوك ليون وملوك نبَارة وملوك قشتالة . إلا على شرط احترام هذه الدول لعاداتهم وتقاليدهم . وكانت لهم امتيازات يقال لها : فُيُورس (Fueros) ، ولم تزل امتيازاتهم هذه محفوظة (١٩٧) .

وعلى وجه الأجمال ، فأنّ السلالة الآريّة هي الغالبة في القسم الشمالي الغربيّ من إسبانيا ، لذلك فأن أجسامهم أقوى وعضلاتهم أصلب من سكّان وسط الأندلس وجنوبيها . ومن السلالة الآرية القشتاليون ، الذين يعتبرون أنفسهم من سكّان البلاد الأصليين . ومثل القشتاليين في الحميّة أهل أراغون وأهل مقاطعة مُرْسِيَة . أما سكّان المقاطعات الجنوبية من الأندلس ، فيغلب على أهلها الذكاء والجمال والسرور وحبّ الترف ، لأنّهم مزيج من شعوب شتى (١٩٨) .

---

(١٩٤) اوريسكو : Aurrescu.
(١٩٥) دولسينيه : Dulsinya.
(١٩٦) تساعد المدافع على الدفاع ، وتعرقل هجوم المهاجم .
(١٩٧) الحلل السندسية (١ / ٣٢١ – ٣٢٢) .
(١٩٨) عن جوسه – جغرافية اسبانيا والبرتغال ، نقلا من الحلل السندسية (١ / ٢٥ – ٢٦) .

إنّ موقع إسبانيا الجغرافي ، وخصوبة أرضها ، وغزارة مياهها ، وطيب جوّها ، جعلها مطمح كثير من الأقوام جماعات وأفرادا ، وملتقى كثير من الشّعوب الغزاة تارة والمهاجرين تارة أخرى ، مما هيّأ لها أسباب امتزاج تلك الشعوب ، وجعلها شعباً واحداً ، يعيش في منطقة جغرافية واحدة ، إذا اختلفت في جذورها ، فهي لا تختلف في بنيتها الراهنة بعد امتزاجها وانصهارها في شعب واحد ، هو الشعب الأسباني ، في بلاده إسبانيا .

الموارد الاقتصاديّة

١ ـ المناخ العام :

قال أبو عُبَيدة البكري : « الأندلس شاميّة في طيبها وهوائها ، يمانيّة في اعتدالها واستوائها ، هنديّة في عِطْرِها وذكائها ، أهوازيّة في عظم جبايتها ، صينيّة في جواهر معادنها ، عَدَنيّة في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة (١٩٩) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « ... خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغَدَق السُّقْيا ، ولذاذة الأقوات ، وفرَاهَة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحّر العُمران ، وجودة اللِّباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السِّلاح ، وصّحة الهواء ، وابيضاض ألوان الأنسان ، ونُبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الأدراك ، وإحكام التمدّن والاعتمار بما حُرِمَهُ الكثير من الأقطار مما سواها » (٢٠٠) .

---

(١٩٩) أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) صاحب المسالك والممالك ، انظر ترجمته فى : الأندلس واوربا (٢٩ ـ ٤٧) ، وانظر هذا النص فى الروض المعطار (٣) والمنتقى من فرحة الأنفس (٢٨١) ونفح الطيب (١ / ١٢٦) .

(٢٠٠) نفح الطيب (١ / ١٢٥ ـ ١٢٦) .

وقال أبو عامر السالمي (٢٠١) ، في كتابه : (درر القلائد وغرر الفوائد) . « الأندلس من الأقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم وأعدلها هواءً وتُرابا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيواناً ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوسطها » (٢٠٢) .

وقال الرازي (٢٠٣) : « الأندلس بلد كريم البقعة ، طيّب التربة ، خصب الجناب ، مُنْبَجِس بالأنهار الغزار والعيون العِذاب ، قليل الهوام ذات السُّموم . معتدل الهواء والجوّ والنّسيم ، ربيعه وخريفه ومَشْتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسِطهٍ من الحال ، لايتولّد في أحدها فضل يتولدّ منه فيما يتلوه انتقاص ، تتّصل فواكهه أكثر الأزمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة . أما السّواحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره ، وأما الثّغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء ، فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كلّ الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كلّ أوان ... » (٢٠٤) .

---

(٢٠١) أبو عامر السالمي : محمد بن احمد بن عامر ، كان اديباً مؤرّخاً حافظا ، صنّف في الحديث والآداب والتواريخ مصنّفات كثيرة مفيدة ، وكتابه : درر القلائد وغرر الفوائد ، في اخبار الأندلس وامرائها وطبقات علمائها وشعرائها ، وقف منه ابن عبدالملك على السفرين الأول والثاني ، انظر ترجمته في التكملة (٤٩٠) والذيل والتكملة الورقة (٣) من مخطوطة المتحف البريطاني ، نقلاً من الفقرة (٢) من الصفحة (١/١٢٦) من كتاب نفح الطيب .

(٢٠٢) نفح الطيب (١ /١٢٦) .

(٢٠٣) احمد بن محمد الرازي : من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في ظل حكم بني امية في الأندلس . وهو جدّ الرازي الذي يعتمده ابن حيّان في المقتبس ، انظر جذوة المقتبس (٩٧) .

(٢٠٤) نفح الطيب (١ / ١٢٩ – ١٣٠) .

ووصف المناخ من المؤلِّفين الأندلسيين القدامي ، لا يقتصر على وصف المناخ حسب ، بل يشمل المنتوجات الزراعية والحيوانية أيضاً ، فهو من هذه الناحية مفيد للغاية في بحث الموارد الأقتصادية للأندلس ، وعلى كلّ حال فالعلاقة وثيقة بين المناخ والموارد الأقتصادية للبلد الواحد كما هو معروف .

إنّ جوّ الأقاليم الوسطى من الأندلس ، هدف لشدة القيظ في فصل الصيّف ، وكثرة البرد في الشتاء ، وذلك لبعدها عن المحيط الأطلسيّ ، وقلّة تأثيره فيها ، وقلما تنزل فيها الأمطار (٢٠٥) ، ولكن الأقاليم الشمالية باردة ، لأنها جبليّة ، وتصلح أن تكون مصايف متميِّزة صيفاً لطيب هوائها وغزارة مياهها . أما الأقاليم الساحلية ، فمناخها هو مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط اعتدالاً في هوائها وفصولها السنوية الأربعة ، وهي مصايف جيدة لطيب جوِّها وكثرة فواكهها .

٢ – الموارد الزراعيّة والحيوانية :

من خواص طُليطلة ، أنّ حنطتها لا تتغيّر ولا تسوّس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السلف (٢٠٦) . ومن الواضح أنّ هناك مبالغة في وصف استمرارية بقاء هذه الحنطة دون غيرها من أصناف الحنطة ، فالأندلسيون غالباً مغرقون في الثناء على الأندلس ، وكلّ فتاة بأبيها معجبة ، ولكن يبدو أنّ الأندلسيين أكثر إعجاباً ببلادهم من غيرهم .

ويزرع في الأندلس الشّعير والذرّة والأرز والعدس والفول والبصل والفوم ، والعنب والحمضيّات والتين ، والزبيب والتُّوت ، والبنجر وأنواع الخضر ، والتفاح والموز والبرقوق والكمثرى والمشمش والتين الشّوكيّ والخوخ والرمان وقصب السكّر . وترعى دودة القزّ أوراق شجر التوت ، كما يزرع الكتان .

(٢٠٥) الجغرافية العمومية (٢٨٩) .
(٢٠٦) نفح الطيب (١ / ١٤٣) .

ومعظم سكّان الأندلس ، يعملون في الزراعة ، ومهنة أكثرهم الفلاحة ، وأشهر الزروع في الأندلس الكروم والفواكه ، وتربىّ قطعان الأغنام والمعز والأنعام كثيراً (٢٠٧) ، وتكثر فيها الخيول والبغال والحمير ، وتربى الدواجن في المزارع بخاصة وفي البيوت أيضاً ، وتستغل مياه الأنهر والبحار لصيد الأسماك .

وفيها من العطور النباتيّة أنواع ، فيوجد في ناحية دَلاية (٢٠٨) من إقليم البشرة (٢٠٩) : عود الألَنْجُوْج (٢١٠) ، وهو عود الطيب ، أو العود الهندي ، أو النَّد ، أو أَلُوَّة (٢١١) ، وهو شجر من فصيلة المازَرْ يونيات وفصيلة الأَلَنْجوجيات ، له عود راتينجيّ إذا حُرق سطعت له رائحة جميلة ، وكثيراً ما يخلطون عود هذا النبات بعود نبات آخر من فصيلة القرنيات (٢١٢) ، والألَنْجُوْج من كلمة يونانية أصلها سنسكريتي (٢١٣) ، ويعمل من هذه العود البخور الطيِّب ، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطرَ رائحة ، وقد سِيق منه إلى خَيران الصقلبّي (٢١٤) صاحب المَرِيَّة ، وأن

---

(٢٠٧) الجغرافية العمومية (٢٨٩) ، وانظر نفح الطيب (١ / ٢٠٠) .

(٢٠٨) دلاية Dalias بلد قريب من المرية من سواحل بحر الاندلس ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤ / ٦٧) .

(٢٠٩) البشرة : او البشرات ، او البشارات (Alpujarras) هى منطقة جبال سيرا نفادا ، انظر الفقرة (١) من الصفحة (١٤١) من كتاب نفح الطيب .

(٢١٠) هو Aquilaria ، انظر : معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الرياضية (٣٧) .

(٢١١) المخصص لابن سيد (١١ / ١٩٨) .

(٢١٢) اسم هذا النبات العلمى : Aloexyon agallochum وقد اعاننى على شرح العطريات الدكتور جابر الشكرى .

(٢١٣) معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الرياضيّة (٣٧) .

(٢١٤) خيران الصقلبى : من أوائل الفتيان الذين اعلنوا استقلالهم بعد انهيار الدولة الاموية بالاندلس على اثر الفتنة البربرية سنة ٣٩٩ هـ ، واتخذ المرية مركزاً له ، انظر اعمال الاعلام (٢١٠ ــ ٢١٥) .

أصل مَنْبَتِه كان بين أحجار هنالك ، وبأكْشُونبة (Ocsonoba) جبل كثيراً ما يتضوع ، ريحه ريح العود الذّكيّ إذا أرسلت فيه النار . وببحر شَذُونَة يوجد العَنْبَر (٢١٥) الطيّب الغربيّ ، وفي مُنَتْت ليُون (Mentileon) المَحْلَب ، واسمه العلمي : (Cerasus nahaleb): (٢١٦) ، وهو شجر من الفصيلة الوردية ، وله عدّة أنواع .

ويوجد بالأندلس القُسْط الطيِّب (Aromate) (٢١٧) ، وهو عود يتبخر به (٢١٨) ، كما يوجد السُنْبُل الطيب ، وهو جنس من النباتات العشبيّة المُعَمَّرة ، من الفصيلة الناردينيّة ، أزهارها على شكل عناقيد أو سنابل بيضاء أو حمراء أو ورديّة ، وجذورها غلاظ ، تستعمل لأغراض طبية (٢١٩) ، وهو من النباتات الطيِّبة الرِّيح (٢٢٠) .

والجَنْطيانة ، تُحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق ، وهو عُقار رفيع (٢٢١)

---

(٢١٥) العنبر : مادة صلبة ، لا طعم لها ولا ريح الا اذا سحقت أو احرقت ، يقال : انها روث حيوان بحرى .

(٢١٦) معجم الشهابى (١٢٣) .

(٢١٧) معجم الشهابى (٤٢) .

(٢١٨) الافصاح (١٦٥/٢) .

(٢١٩) معجم الشهابى فى المصطلحات الزراعيّة (٧٦٦) ، واسم السنبل العلمى :(Valériana) وهى مقتبسة من اليونانية .

(٢٢٠) الأفصاح (١١٦٤/٢) .

(٢٢١) الجنطيانة : سمى باسم ملك من ملوك اليونان ، انظر كتاب القانون فى الطب (٢٨٣) ، وهو صنف من اصناف النبات ينبت فى الجبال ، يفيد الكبد والطحال وينفع من عرق النسا ، انظر كتاب المعتمد فى الأدوية (٧٥) ، وجذوره مرّة غير قابضة ، خافضة للحرارة ، منبهة ، منشطة للهضم ، أجودها الأصفر ، انظر تذكرة ارمانيوس (٩٨) . ولهذا النبات ذكر فى معجم تاج العروس ، فليرجع اليه من اراد .

. والمُرّ (٢٢٢) الطيِّب بقلعة أيّوب (٢٢٣) ، وأطيب كهرباءالأرض (٢٢٤) بشَذُونَة ، درهم منها يَعْدِل دراهم من المجلوبة .

وأطيب القِرْمِز (٢٢٥) ، قرمز الأندلس . وأكثر ما يكون بنواحي إشْبِيلِيَة ولَبْلَة وشَذُونَة وبَلَنْسِية . ومن الأندلس يُحمل إلى الآفاق(٢٢٦) .

وزعفران طُليطلة هو الذي يعمّ البلاد ، ويتجهّز به الرِّفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصّبغ السّماوي (٢٢٧) .

وفي بحر الأندلس ، بجهة الغرب ، يخرج العَنْبَر الجيِّد المقدّم على أجناسه في الطيب والصبر على النار (٢٢٨) ، هذا بالأضافة إلى وجوده ببحر شَذُونَة ، كما ذكرنا ذلك قبل قليل .

---

(٢٢٢) المرّ : اسمه العلمى هو (Myrrha) ، وهو أشجار كبيرة الحجم ، كثيرة الأنواع ، طيّبة الرائحة ، وهى من الأشجار البابليّة ، والاسم البابلىّ : مرّ . ورد فى النصوص البابلية القديمة ، واسمه الأجنبى كاسمه البابلى ، الذى نقله الأوربيون عن عرب الأندلس ، وانظر ماجاء فى معجم الشهابى فى المصطلحات الزراعيّة (٤٨٣) .

(٢٢٣) قلعة أيوب ((Caltayud)) : وهى بقرب مدينة سالم ، بينها وبين دروقة عشرون ميلاً . وهى مدينة عظيمة جليلة القدر فى الأندلس من اعمال سرقسطة . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧ / ١٤٨ ـ ١٤٩) .

(٢٢٤) كهرباء الأرض : مادة صمغية ، توجد عند سواحل البحر بالأندلس ، والنوع الأندلسى منها أصفر وأصلب من الشرقىّ ، وتدخل فى تحضير بعض الأدوية ، انظر الفقرة (٩ من نفح الطيب (١/١٤١) .

(٢٢٥) القرمز ((Cochineale) : وهو انواع كثيرة الفراشات وهى فراشات لها شهرة كبيرة فى تاريخ الأصباغ ، اذ تستخرج منها أصباغ كثيرة ، تعرف باسم : القرمزّيات ، فيقال : لون قرمزى ، وصبغ قرمزى ، لونه احمر قان .

(٢٢٦) انظر جغرافية الأندلس واوروبا (١٢٤ ـ ١٢٦) ونفح الطيب (١ / ١٤٠ ـ ١٤٢) .

(٢٢٧) نفح الطيب (١ / ١٤٣) .

(٢٢٨) نفح الطيب (١ / ١٤٠) .

والمقدَّم في الأفاوِه المفضّل في أنواع الأشْنَان ، لا ينبت في شيء من الأرض إلاّ بالهند والأندلس (٢٢٩) .

وبنواحي المتلون يكون البَرْبَارِيْس (٢٣٠) العجيب (٢٣١) . ومن الواضح جداً ، أنّ المؤلّفين الأندلسيين بخاصة ، ركزوا على المزروعات العطريّة والانتاج العطري لبلادهم ، مما يدلّ على اهتمامهم بالعطور أولاً ، وهذا يشير إلى اهتمامهم بكماليّات التَرف ، ورغبتهم فيه ، واتّجاههم إليه ، وهذا الترف كان من عوامل خسارة الأندلس ، فمن الصعب على المترف أن يقاتل كما يقاتل الرجال ، لأنّه يحب الحياة ويخاف الموت .

٣ ـ المعادن والأحجار الكريمة :

يكون حجر اللّازَوَرْد (٢٣٢) الجيد بناحية لَوْرَقَة من عمل تُدْمِيْر ، وقد يوجد في غيرها . وعلى مقربة من حصن لُوْرَقَة من عمل قُرطبة معدن البِلَّور (٢٣٣) ، وقد يوجد بجبل شميران ، وهو شرقيّ يبره . والحجر

(٢٢٩) جغرافية الأندلس واوروبا (١٢٥ ـ ١٢٦) ، والأَشنان شجر من الفصيلة الرَّمراميّة ، ينبت فى الأرض الرملية ، ويستعمل هو اورماده فى غسل الثياب والأيدى .

(٢٣٠) البرباريس ، ورد فى آثار البلاد واخبار العباد للقزوينى (٥٠٣) : الانبرباريس ، وهو اسم من اسماء هذا النبات ، ومن اسمائه : امِيرْ باريس ، امير باريس ، الى غير ذلك ، واسمه العلمى : (Berberis): انظر معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الزراعية (٦٨) ، وفيه اَمْبَر باريس ، أنْبَر باريس ، وهو من الفصيلة البرباريسيّة ، كثيرة التويجات ، من ذوات الفلقتين ، تزرع للزينة .

(٢٣١) جغرافية الأندلس واوروبا (١٢٦) .

(٢٣٢) اللازورد : من الأحجار الكريمة ، لونه ازرق سماوىّ او بنفسجىّ ، يستعمل للزينة ، واجوده ماكان فيه خطط حمر ذهبتية ، واسمه (Lapislazuli, Lazurite).

(٢٣٣) البِلّوْر = البَلّوْر : حجر ابيض شفاف ، وهو (Rock Crystal).

البجَادِيّ (٢٣٤) : يوجد بناحية مدينة الأشبونة ، في جبل هناك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج . والياقوت الأحمر (٢٣٥) موجود بناحية مُنْت ميور في كورة مالَقَة ، إلاّ أنّه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره . ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بَجّانَة (٢٣٦) . بخندق يُعرف بقرية ناشرة أشكالاً مختلفة كأنّه مصبوغ ، حسن اللون صَبُور على النار . وحجر المغناطيس الجاذب للحديد ، يوجد في كورة تُدْمِيرْ . وحجر الشّاذنة (٢٣٧) بجبال قُرطبة كثير ، ويُستعمل في ذلك التذاهيب . وحجر اليهودي (٢٣٨) في ناحية حصن البونت (٢٣٩) ، وهو أنفع شيء للحَصاة . وحجر المرقشيثا

---

(٢٣٤) البجادى والبيداجىّ : حجر كريم يشبه الياقوت ، أحمر اللون تعلوه بنفسجيّة ، وهو البزادى ايضا وهو (Garnet).

(٢٣٥) الياقوت : حجر من الأحجار الكريمة ، وهو اكثر المعادن صلابة بعد الماس ، ويتركب من اكسيد الأَلمنيوم ، ولونه فى الغالب شفاف مشرّب بالحمرة أو الزرقة او الصفرة ، ويستعمل للزينة ، واحدته او القطعة منه : ياقوتة ، والجمع : يواقيت .

(٢٣٦) بجانة : مدينة كانت من اهم مدن ارش اليمن ، اى الأَقليم الذى نزل عليه بنو سراج القضاعيون ، وكانوا يأخذون ارشه ، وهى قريبة من المرية ، بينهما ستة أميال . قال ابن سعيد : محدثة بنيت فى عهد بنى امية . وفى معجم البلدان : مدينة بالاندلس من اعمال كورة اِلبيرة خربت ، وقد انتقل أهلها الى المرية ، انظر معجم البلدان (٢ / ٦١) .

(٢٣٧) الشاذنة : حجر يستعمل فى مداواة العين وخشونة الأجفان ، انظر الفقرة (٦) من نفح الطيب (١/١٤٢) ، والشاذنة : اكسيد حديدى طبيعي ، يعدّ اهمّ معدن للحديد ، انظر الصحاح فى اللغة والعلوم (١ / ٦٥٤) ، ويبدو أن التذاهيب هى خشونة الأجفان مرضاً ، يداوى بالشاذنة .

(٢٣٨) احجار اليهودي : احجار صغيرة تحتوى على أملاح قلوية كالبوتاسيوم والصوديوم ، ويسمى أيضا حجر الدم ، ويستعمل لتداوى الحصاة ، انظر احياء التذكرة (٢٤٥) وعجائب المخلوقات للقزوينى (٢٦٤) .

(٢٣٩) حصن البونت (Alpuente) :شمالى بلنسية .

(٢٤٠) الذهبية في جبال أُبَّذَة (٢٤١) لانظير لها في الدنيا ، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها. والمغنيسيا في الأندلس كثير ، وكذلك حجر الطّلق (٢٤٢) ويوجد حجر اللّؤلؤ بمدينة بَرْشَلُونَة ، إلاّ أنّه جامد اللّون . ويوجد المرجان بساحل بَيْرَة من عمل المرِيَة (٢٤٣) ، أقلّ ما لُقط منه في أقلّ من شهر نحو ثمانين ربعاً. ومعدن الذّهب بنهر لاردة يُجمع منه كثير ويجمع أيضاً من ساحل الأشبونة . ومعادن الفضّة في الأندلس كثيرة في كورة تُدْمير وجبال حَمَّة بَجانة (٢٤٤) ، وبأقليم كرتش من عمل قُرطبة معدن فضّة جليل . وبأكشونبة معدن القصدير

---

(٢٤٠) المرقشيثا (Marcassite): كان القدماء يطلقونه على البُوريطس ايضاً ، وهو مثله مركب من كبريتور الحديد ، ولكنهما يختلفان شكلاً . ومعنى الكلمة : الحجر الصلد . وفى مفردات الطب ، أنّ منه اصنافاً ، منها الذهبى والفضى والنحاسيّ والحديدى ، وكل صنف يشبه مانسب اليه ، انظر معجم متن اللغة (٥ / ٢٨٥) والصحاح (اللغة والعلوم (٢ / ٤٩١) .

(٢٤١) ابذة (Ubeda): الى الشمال الشرقى من بياسة ، بينهما سبعة اميال .

(٢٤٢) الطّلق (Talc) : هى سليكات المنغنسيوم المائيّة ، ويوجد فى الطبيعة ، وينطحن على شكل مسحوق ابيض ، يستخدم فى تحضير المساحيق ، انظر الصحاح فى اللغة والعلوم (٢ / ٤٧) . وهى حجر برّاق ، يتحلل اذا دقّ الى طاقات صفار دقاق ، ويشبه الشبّ اليماني ، واذا ألقى فى النار لم يحترق ، لذلك كانوا يطلون به المواضع التى قد تصيبها النار ، لكي لاتحترق ، انظر الفقرة (١٠) من نفح الطيب (١/١٤٢).

(٢٤٣) آ ــ بيرة : بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس ، ولها مرسى ترسى فيه السفن مابين مُرسية والمرِيَة ، انظر معجم البلدان (٢/٣٣٠).
ب ــ المرية (Almeria : مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر ، وازدهرت فى أيام المرابطين ، واشتدّ فيها الرخاء ، وتقع على الساحل الشرقى الى الجنوب من بجانة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨ / ٤٢ ــ ٤٣) .

(٢٤٤) حمة بجانة : بشرقى بجانة ، على جبل شامخ فيه معادن غريبة ، وفيه الحمة العجيبة الشأن ، انظر الروض المعطار ، نقلاً عن الفقرة (٢) من نفح الطيب (١ / ١٤٣) . والحَمّة لغة : العين الحارّة يُستشفى بها الأعلاّء والمرضى .

لانظير له ، يشبه الفضّة ، وله معادن بناحية إفرنجة وليون ، ومعدن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هناك يتجهّز به إلى الآفاق . ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ، ومعدن التُوتِيا الطبيّة بساحل إلْبِيرَة بقرية تسمى : بَطِرْنَة (٢٤٥) ، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس ، وبجبال قرطبة توتيا ولَيست كالبطرنيّة . ومعدن الكحل المشبّه بالأصفهاني بناحية طُرطُوشَة (٢٤٦) ، يحمل منها إلى جميع البلاد . ومعادن الشّبوب (٢٤٧) والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تُحصى (٢٤٨) .

وأعظم معدن للذهب بالأندلس في جهة شَنْت ياقُوه (٢٤٩) (شنت

(٢٤٥ آ ـ التوتيا = التوتياء حجر يكتحل به ، وهو معرّب ، انظر الصحاح في اللغة والعلوم (١ / ١٤٧) ، وهى معدن صلب ابيض ضارب الى الزوقة ، يلين بالاحماء ويطرّق ، وهو الزنك والخارصين ، ويتخذ منه الكحل . ويستعمل لتغطية سطوح البيوت القليلة الانحدار ، ويطلى به الحديد فيقيه الصدأ ، وربما استعملوا بعض املاحه سماداً وسيطا ، انظر معجم متن اللغة (١ / ٤١٣) .

ب ـ البيرة (Elbira) : كورة كبيرة من الأندلس ، ومدينة متصلة بأراضى كورة قبرة ، بين القبلة والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً ، وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغرناطة، انظر معجم البلدان (١ / ٣٢٢ ـ ٣٢٣) .

جـ ـ بطرنة : قرية من قرى بلنسية ، انظر المغرب (٢ / ٣٥٥) .

(٢٤٦) طرطوشة (Tortosa) : مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ، وهى شرقى بلنسية وقرطبة ، قريبة من البحر ، انظر معجم البلدان (٦ / ٤٢ ـ ٤٣) .

(٢٤٧) الشبوب : جمع شَبّ ، وهو معدن يشبه الملح والنوشادر ، وهو كبريتات الأمونيا والبوتاس ، وهو بلورات بيض طعمها قابض (Alun) ، وأما الشب الأزرق فهو كبريتات النحاس ، انظر متن اللغة (٣ / ٢٦٤) والصحاح فى اللغة والعلوم (١ / ٦٤١) .

(٢٤٨) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٤ ـ ١٣٠) ونفح الطيب (١/ ١٤٠ ـ ١٤٣).

(٢٤٩) شنت ياقو = سنت ياقوه = سنت ياقوب = سنت يعقوب (Santiago de Compostela) : (فى اقصى الشمال الغربى من الأندلس ، بمنطقة جليقية ، وفيها كنيسة مقدّسة يحجّون اليها ، وهى قلعة حصينة ، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٠١) .

ياقوب) قاعدة الجلالقة (٢٥٠) على البحر المحيط . وفي جهة قُرطُبة الفضّة والزئبق . والنحاس في شمال الأندلس كثيرة ، والصُّفْر الذي يكاد يشبه الذّهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرّقة في أماكنها .

والعَيْن الذي يخرج منها الزاج ((٢٥١) في لَبْلَة مشهورة ، وهو كثير مفضّل في البلاد منسوب . وبجبل طليطلة جبل الطَّفْل (٢٥٢) الذي يجهّز إلى البلاد ، ويُفضّل على كلّ طَفْلٍ بالمشرق والمغرب .

وبالأندلس عدّة مَقاطع للرُّخام ، وفي جبل قُرطُبة مقاطع الرُّخام الأبيض الناصع والخمريّ . وفي ناشِرة مقطع عجيب للعُمُد ، وبِبَاغة من مملكة غَرْناطة مقاطع للرُّخام كثيرة غريبة مُوَشّاة في حمرة وصفرة ، وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك المُجزّع (٢٥٣) .

وحصى المريّة يُحمل إلى البلاد ، فأنّه كالدرّ في رَوْنَقه ، وله ألوان عجيبة ، ومن عادتهم أن يَضَعوه في كيزان الماء .

---

(٢٥٠) الجلالقة : سكان جِلّيقيّة التى تمتدّ من نهر دَويره (Duero) جنوباً حتى الساحل الشمالى لشبه جزيرة الأندلس ، ومن الساحل الغربىّ لها حتى قَشْتالة (Ca stile — Castilla) انظر المادة (١) من جغرافية الأندلس وأوروبا (٧١) .

(٢٥١) الزاج : ملح معروف ، يقال له الملح اليمانى ، انظر معجم متن اللغة (٣ / ٧٥) . والزاج الأبيض : كبريتات الخرصين . والزاج الأزرق : كبريتات النحاس .

(٢٥٢) الطَّفل (Shale) : الطين يتصلب على هيئة رقائق بتأثير ضغط مافوقه من الصخور ، بحيث يسهل فصلها ، وهى مادة اذا اضيف اليها الماء تكوّنت منها طينة تقبل التشكّل ، ومن مثلها ــ تجعل الأوانى الفخارية . وأساس تركيب الطفل هو سليكات الألمنيوم المائى ، تختلط بها بعض الشوائب كالحديد وغيره ، انظر معجم الصحاح (٢ / ٤٣) . وهو طين أصفر تصبغ به الثياب ، وبائعه الطّفال ، انظر معجم متن اللغة (٣ / ٦١٧) .

(٢٥٣) المجزّع : كلّ ما اجتمع فيه سواد وبياض .

وفي الأندلس ، من الأمنان التي تنزل من السّماء ، القِرْمِز الذي ينزل على شجر البَلّوط ، فيجمعه الناس مِن الشَّعر (٢٥٤) ويصبغون به ، فيخرج منه اللّون الأحمر الذي لاتفوقه حمرة (٢٥٥) .

وليست الأمنان التي تنزل من السّماء من الأحجار ولا من المعادن ، كما أنهّا ليست من الموارد الزراعية ، وقد وضعها صاحب نفح الطيب في هذا المكان ، فآثرنا أن نضعها حيث وضعها ، خاصة وهي تمسّ الأصباغ ، وقد كان لقسم من المعادن التي ذكرتها فائدة للأصباغ أيضاً ، ولعلّ هذه الصِّلة هي التي حدث بصاحب نفح الطيب ، أن يضعها في هذا المكان .

وسألت أحد علماء الزراعة عن المَنّ ، فذكر أنّ نوعاً من الحشرات تفرزه على أوراق الأشجار ، وعلى الصخور أيضاً ، فمنه ما يُصنّع ويؤكل ، ومنه ما يصنع ليكون من الأصباغ ، فلا ينزل المَنّ من السّماء ، بل يفرز من بعض أنواع الحشرات ، وتبقى الحقيقة في أنّ هذا المَنّ الأندلسي صبغ قرمزي ، ويبقى مكانه مع الأصباغ المعدنية التي ذكرناها .

إنّ الأندلس غنيّة بالأحجار والمعادن ، وتعتبر من أغنى الأقطار في أحجارها ومعادنها ،

٤ ـ المصنوعات الأندلسيّة والتّصدير :

أ . اختصّت المريّة ومالَقَة ومُرْسِية بالوشي المذهّب الذي يتعجّب من صنعه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا .

وفي تَنْتالة من عمل مُرْسِية تُعمل البُسُط التي يغالى في ثمنها بالمشرق . ويُصنع في غرناطة وبَسْطَة من ثياب اللباس المحرّرة ، الصّنف

(٢٥٤) الشَعرا = الشَعراء : الارض او الروضة الكثيرة الشجر .
(٢٥٥) نفح الطيب (١ / ٢٠٠ ـ ٢٠١) .

الذي يُعرف بالمُلبَّد (٢٥٦) المختم بالألوان العجيبة .

ويصنع في مُرْسِية من الأسِرّة المرصّعة والحُصرُ الفتّانة الصّنعة وآلات الصُّفر والحديد ، من السّكاكين والأمقاص المذهّبة ، وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يَبْهر العقل ، ومنها تجهّز هذه الأصناف إلى بلاد إفْرِيقيَّة وغيرها . ويُصنع بها وبالمريّة ومالقة والزّجاج الغريب العجيب وفخّار مُزَجّج مذهّب . ويُصنع بالأندلس نوع من المفصّص المعروف في المشرق بالفُسَيْفِساء ، ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزُّلَيْجِيّ (٢٥٧) يشبه المفصّص ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرّخام الملوّن الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشّاذَرْوان (٢٥٨) ، وما يجرى مجراه .

ب . وأما آلات الحرب من التّراس والرِّماح والسرّوج والألجم والدروع والمغَافِر (٢٥٩) ، فأكثرهم الأندلس كانت مصروفة إلى هذا الشأن والسيوف

---

(٢٥٦) الملبّد : التلبيد (Milling) بالحمض (Acid) إحدى عمليات تجهيز المنسوجات الصوفية ، وفيه يعالج النّسيج فى وسط حامضى فيلبّد ، كعملية تلبيد القبّعات والطرابيش وبعض أنواع المنسوجات الصوفية كالجوخ ، فيكون هذا النسيج مُلبّداً ، انظر الصحاح فى اللغة والعلوم (٢ / ٤٢٩ ـ ٤٣٠) .

(٢٥٧) الزليجى : هو مايسمى بالأسبانية (Azaulejo) ، وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملوّن كالقاشانى ، بالأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر ، وما يركّب من هذه الألوان ، وغالبه الازرق الكحلى ، وربّما اتّخذت منه الوزارات بحيطان الدور ، انظر صبح الأعشى (١٥٦/٥) ومعجم متن اللغة (٣ / ٤٨) .

(٢٥٨) الشاذروان : صِفَة حول البناء متّصلة به ، كشاذروان الكعبة المشرفة . اوهو ماترك من عرض أساس البناء خارجاً ، ويسمىّ التأزير ، انظر معجم متن اللغة (٣ / ٢٩٤) .

(٢٥٩) المغافر : جمع مِغْفَر ، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة .

البرذليّات مشهورة بالجودة ، وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق . والفولاذ في إشبيلية إليه النهاية ، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره (٢٦٠) .

جـ . وتصدّر الثياب والبُسُط والأسرّة والحُصُر وآلات الصُّفر والحديد والأسلحة ومواد البناء الفنيّة إلى إفريقيّة بخاصة ، كما تصدّر العطور الفاخرة ، والمواد الزراعية التي لاتتلف بسرعة كالحبوب إلى إفريقيّة أيضاً وإلى المشرق وأوربا ، وبخاصة العطور .

وقد كان التّبادل التّجاري بين الأندلس وإفريقيّة نشطاً جداً قبل الفتح ، وكانت بواخر التجّار تجري بين الموانىء بنشاط كبير ، وقد استعان المسلمون ببواخر التجار التي كانت تعمل بأشراف يُلْيان للعبور من إفريقيّة إلى الأندلس . فنقلت سرية طَرِيْف بن مالك الأستطلاعية إلى الأندلس ، كما نقلت قوّات طارق بن زياد أيضاً ، لكي تؤمّن قوّات المسلمين مباغتةً كاملة لقوّات القُوْط في الأندلس ، باعتبار أنّ السفن التجارية تعبر باستمرار بين إفريقيّة والأندلس ، ولايلفت عبورها الأنظار ، وسيرد تفصيل ذلك في سيرة طريف وطارق .

كما يوجد السَّمّور(٢٦١)في البحر المحيط بالقرب من ساحل الأندلس ، ويعمل من وَبَرِه الفِراء الرفيعة ، كما يُجلب من جهة جزيرة بَرْطَانِيَة(٢٦٢)

---

(٢٦٠) نفح الطيب (١ / ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

(٢٦١) السَّمّور : دابة تشبه السنّور ، تتخذ من جلودها الفراء الغالية الأثمان ، انظر معجم متن اللغة (٣ / ٢٠٧) .

(٢٦٢) جزيرة برطانية : هناك مدينة بربطانية (Boltania) في شرقي الأندلس ، وهي كورة ايضا ، وهي ليست على المحيط الأطلسي . والمقصود هنا : الجزيرة البريطانيّة (انكلترا) ، انظر البيان المغرب (٢ / ١) ونفح الطيب (١/١٩٧) والروض المعطار (٣) ، وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٨) الفقرة (١) .

إلى سَرَقُسْطَة ويُصنَع بها كما يصنَع بقرُطبة (٢٦٣) ، ويصدّر إلى فرنسة وأوروبا ، لأنّ الفرو يباع في المناطق الباردة ، ولا تحتاجه المناطق الحارة . كما يصدّر إلى شمالي إفريقيّة والمشرق ، لرغبة المترفين والأغنياء باقتناء ألبسة فراء السَّمُور للتباهي به .

والقَنْلِيَّة (٢٦٤) حيوان أدقّ من الأرنب وأطيب في الطعم وأحسن وبراً ، وكثيراً ما تُلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد في برّ البربر الأفريقي منها إلاّ ما جُلب منها إلى سَبْتَة فنشأ في جوانبها ، وقد صُدِّرت إلى تونس حاضرة إفريقيّة (٢٦٥) ، وإلى غيرها من الأصقاع الأفريقيّة .

وبِغال الأندلس فارهة ، وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السِّلاح والعدِو في البرّ الجنوبيّ (٢٦٦) ، ويصدّر منها إلى أوروبة وإفريقيّة لكثرتها ، وقد استفاد المسلمون الفاتحون منها أيام الفتح بالغنائم ، حتى فاضت عن حاجتهم إليها ، كما سيرد تفصيله في فتح طارق بن زياد .

ويمكن القول : إنّ الأندلس غنيّة بمواردها الزراعيّة والحيوانية والمعدنية، جعلت السكّان يعيشون برغد ورفاهيّة ونعمة ، فأذا فاضت منتوجاتهم الزراعية والحيوانية والصناعية عن حاجة سكّانها ، ووجدوا للفائض عن حاجتهم السُّوق المناسب ، صدّروا تلك المنتوجات .

---

(٢٦٣) نفح الطيب (١ / ١ / ١٩٧) .

(٢٦٤) القنلية : حيوان شبيه بالأرنب ، ويسمى بالأيطالية (Coniglio) انظر نفح الطيب (١ / ١٩٨) الفقرة (٤) .

(٢٦٥) نفح الطيب (١ / ١٩٨) .

(٢٦٦) نفح الطيب (١٩٩/١) .

وقد كان موقف المسلمين الفاتحين أيام الفتح ، من الناحية الأدارية ، موقفاً متميزاً ، بل كان موقفهم الأداري أفضل من موقف الفاتحين في الجبهات الأخرى شرقاً وغربا ، ولا نعلم أنّ المسلمين الفاتحين في أيام الفتح ، حرموا من مادّة من مواد القضايا الأدارية ، وبالعكس فأنهم كانوا في سعة ونعمة وخير ، وقد حمل موسى بن نصير إلى دمشق معه مغانم لاتقدر بثمن ، مما يدلّ على أنّ الأندلس كانت بخيرٍ أيام الفتوح .

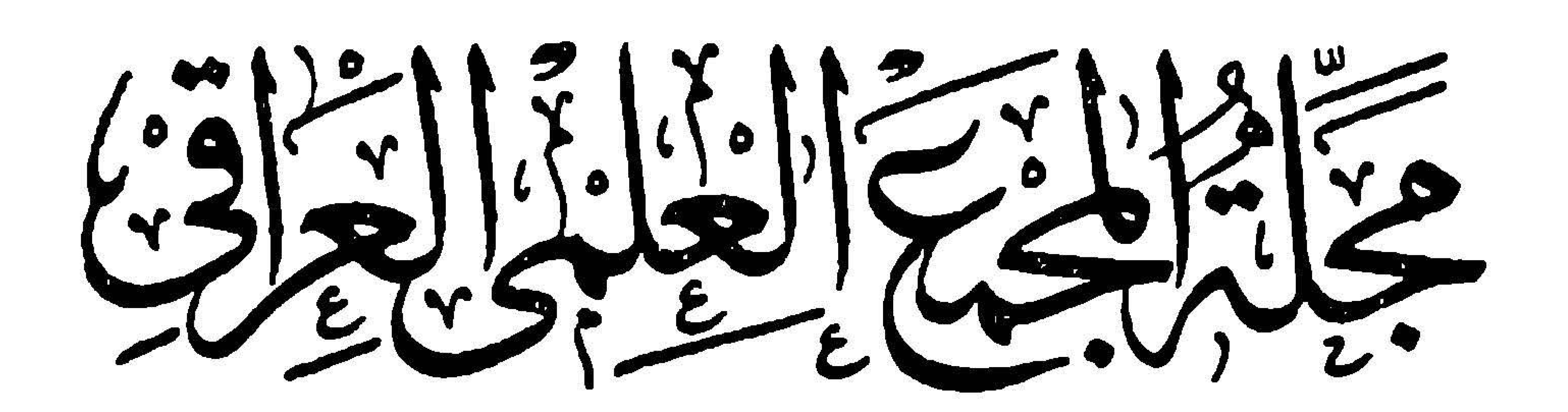
الفهرس

عرض الكتب

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريــد

(تدفع قيمة الاشترك سلفاً)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسـنة ١٩٨٧





الجـزء الثاني والثالث ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــداد

شوال ١٤٠٧ هـ ـ حزيران ١٩٨٧ م

الأندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفى ايامه الاولى

اللواء الركن محمود شيت خطاب

القسم الثانى
١ ـ فى اوروبة وافريقية

ا ـ البرابرة :

أطلق اليونان والرومان على جميع الشّعوب سواهم اسم : البرابرة ، ثم خُصّت به شعوب بدأت تنتشر في اوروبّة منذ القرن الثالث الميلاديّ ، بعد أن كانت قد غادرت مواطنها الأصليّة في اواسط آسية منذ فجر التاريخ على الأغلب ، وكان موطنها الأصلي الهند والتركستان ، وقد غادرت موطنها قبل الميلاد ببضعة قرون ووصلت الى شمالي اوروبة والى تخوم اوروبّة الشّرقية .

واستطاع اليونان والرومان أن يردّوا تلك الحشود البربريّة المتوحّشة عن تخوم إمبراطوريتيهم : الأمبراطورية الرومانيـة الشّرقيّة (البيزنطيّة) والأمبراطورية الرومانية الغربيّة ، زمناً طويلا ، ثم حالوا بين تلك الحشود وبين اجتياز نهر الدانوب الى شبه جزيرة البلقان ، واجتياز نهر الراين الى شبه جزيرة إيطالية وإلى فرنسة وما وراثهما . ولكن لمـا بدأ الضعف ينخر في جسم هاتين الأمبراطوريتين بالنزف والتنازع وبالدهّر ، منذ القرن الرابع الميلادي ، جرؤت تلك الحشود على الدنوّ من حدود تلك الأمبراطوريتين ، ومن اختراق تلك الحدود أيضا .

ب ـ اجناسهم وممالكهم :

وكان البرابرة أجناساً ، منهم الجرمان ، أكثر تلك القبائل عَدداً وأعظمها أثراً في تاريخ اوروبّة في العصـور الوسطى . ومن أشهر القبائل الجرمانية قبائل القُوْط الذين انحدورا منذ أواسط القرن الثاني للميلاد ، من مساكنهم

يومذاك على شواطىء نهر الفستولا (١) ، إلى سهول أوكرانية ، شمال البحر الأسود . وهنا انقسم القوط إلى قسمين : قبائل عرفت بسكّان الغابات ، الذين عُرفوا فيما بعد باسم : القوط الغربيين . وقبائل عرفت بسكّان السهول الواسعة ، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم : القوط الشّرقيين . وكان نهر الدنيستر يفصل بين مساكن الفريقين .

وكان مقام القوط الغربيين بين مصّب نهر الدنيستر ومصّب نهر الدانوب ، على حدود البلقان مباشرة . سبباً لنشر الدين المسيحي بينهم . ولكن على يد الدُّعاة الأريوسيين ، ولذلك تَقَبَّل القوط الغربيون المذهب الأريوسيّ ، وهذا المذهب الذي أوجده الأسقف الأسكندري أريوس في سنة (٣١٠ م) ، يجعل المسيح عليه السّلام إنساناً كاملاً ، وينفي عنه الألوهية ، ويقول بأنّ الله خلقه من لاشيء . ولهذا أوصى النبيّ صلى الله عليه ويسلّم برسالته النبوية إلى هِرَقل عظيم الرّوم بمعتنقي هذا المذهب خيرا . فقال في رسالته : « فأن توليتَ فعليك إثم الاريسيين ... » (٢) .

ج ـ وصولهم إلى اوروبة :

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي ، كان عدد من القبائل الجرمانية قد انتشرت في غربي اوروبة : في فرنسة وإسبانيا . أما الفاندال ، فكانوا قد انحدروا من مساكنهم بين نهر الفستولا ونهر الأدور(٣) (Oder) ، إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم : بافارية . جنوبي شرقي ألمانية ، ثمّ إنهم جاءوا إلى اسبانيا ، وفيها سكن الفاندال في منطقتين : في رقعة ضيّقة في شمالي

(١) الفستولا : نهر بولونية ، تقوم عليه صوفيا عاصمة بولونية .

(٢) انظر التفاصيل عن الاريسيين فى كتابنا : السفارات النبوية ، ومقدمة كتابنا : سفراء النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم .

(٣) االأودر : نهر فى شرقىّ المانية ، يفصل اليوم بين شمال المانية وشمالى بولونية .

غربي إسبانيا . وفي رقعة واسعة في جنوبي اسبانيا . وكذلك كان السوابيون(٣أ) وهم شعب جرمانيّ أيضا ، قد نزلوا في شمالي غربي إسبانيا جنوب منازل الفاندال الشمالية .

د ـ القوط الغربيون فى ايطاليا :

أما القوط الغربيون ، فكانوا لا يزالون في شرقي اوروبة ينازعون أباطرة المشرق : الرُّوم البيزنطيين ، فقد هاجموا البلقان ، وخاضوا ضد الرّوم معركة أدرنة سنة (٣٧٨ م) وانتصروا عليهم ، وكان القوط الغربيون يزدادون مع الأيام قوّة . وفي سنة (٣٩٥م) انقسمت الأمبراطورية الرومانيّة إلى قسمين : شرقيّاً وغربيّاً ، وكان ذلك من علامات تطرّق الضعف إليها ، وقدّم القوط الغربيون للرئاسة عليهم زعيماً منهم اسمه الأريك (٣٩٥ ــ ٤١٠ م) ، ثم أخذوا يبحثون عن أرض يستقرّون فيها لينشئوا عليها ملكاً لهم . وتغلب القوط الغربيون على الرّوم في البلقان مراراً ، ولكنهّم كانوا يودّون دائماً النزول في إيطالية نفسها . وقطع الأريك بقومه الألب سنة (٤٠١ م) ، وسار إلى رومة ، ولكنّ الرومان أقنعوه بالرجوع عنها ، بعد أن خلعوا عليه لقب : قائد الجند . وعقدوا معه معاهدة . وانسحب الأريك من إيطالية ، ليعود إليها بعزم أشد في صيف سنة (٤٠٣ م) ، وليغزوها ويقضي على سلطانها . ولكن الأريك توفي في تلك السنة ، فخلفه زعيم آخر اسمه : أدولف . كان صهر للأريك . ونزل أدولف بقومه جنوبي غربي فرنسة ، وكان الحكم في القوط الغربيين لايزال الى ذلك الحين رئاسة بالعصبيّة ، ولم يكونوا قد أسسوا لهم دولة بعد . وفي سنة (٤١٤ م) ، دخل القوط الغربيون إلى إسبانيا .

---

(٤) السوابن أو الشوابن : قبائل جرمانية عرفت مساكنها منذ القرن الثالث الميلادى ، فى جنوبى عربى المانية ، بين نهر الراين ونهر النيكر (Necker) ونهر الدانوب (نهر الطونة) .

وتوفي أدولف في آخر سنة (٤١٥ م) ، فخلفه فاليا (٤١٥ – ٤١٩ م)، وأسّس للقوط الغربيين دولة جعل عاصمتها تولوز (٤) (٤١٩ م) في جنوبي فرنسة . ولما رأت رومة أنّ القوط قد قوُوا كثيراً ، واصبحوا لها مصدر قلق دائم، لم تجد بدأ من مصانعتهم والرضا باستقلالهم ، فأقرّتهم على النزول في جنوبي فرنسة ، على أن يتخلوا عن سائر الأراضي التي استولوا عليها .

هـ – في إسبانيا :

وكان على القوط الغربيين يومئذٍ ، ملك قدير ، هو ثيودوسيوس الاول (٤١٩ – ٤٥١ م) ، فحاسن السوابيين ، واقتسم معهم السيطرة على إسبانيا ، ثم سكت عن استيلائهم على منازل الفاندال الشمالية ، بينما كان هو يتوسّع في الجنوب ، ويدفع الفاندال عن إسبانيا كلّها .

و – الفاندال في إفريقيّة :

وفي أيام غونداريك بن غوديغيل (٤٠٦ – ٤٢٨ م) ملك الفاندال ، اشتّد ضغط القوط الغربيون في إسبانيا على الفاندال . وأخذ الفاندال منذ ذلك الحين بمغادرة إسبانيا ، فنزلوا أول ما نزلوا في الجزائر الشرقيّة (٤٢٣ م) ، فلما توفي غونداريك خلفه أخوه غايسيريك اوغانسيريك (٤٢٨ – ٤٧٧ م) .

في هذه الأثناء ، كان النزاع يعصف في الأمبراطوريّة الشرقية ، كما كان الضعف قد أقعد الأمبراطورية الغربية . كان النزاع الديني بين الأريوسيين وبين الكنيسة الجامعة (٥) على أشدّه في كلّ مكان ، في شرقي أوربة ، وفي غربيّها . وكان الوطنيون من أهل إفريقية ثائرين على الأمبراطورية الغربية ، فتوقف ورود القمح الأفريقي إلى رومة ، وهُدّدت رومة بمجاعة ، ثم إنّ الدفاع الروماني كان قد ضعف مع شيخوخة رومة ، ويبدو فوق هذا كلّه ، أن نزاعاً نَشِبَ بين بونيغاسيوس الحاكم العسكري في إفريقية ، وبين

(٥) تولوز Toulouse : ويسميها قسم من المؤلفين : طلُوزة ، وتولوشة ، وطولوشة ، وهي مدينة طولوز في جنوبي فرنسة .

(٦) الكنيسة الجامعة : القائلون بأنَّ المسيح هو الله بالذاتِ ، خصوم الاريوسيين .

والتينيان الثالث إمبراطور رومة (٤٢٥ — ٤٥٥ م) ، فيقال : إنّ بونيفاسيوس عمد إلى استدعاء غايسيريك للنزول في إفريقية ، إغاظة لوالتينيان .

وفي أيار (مايو) من سنة (٤٢٩ م) ، أبحر غايسيريك من جزيرة طَريف (٦) في نحو ثمانين ألفاً من قومه ، فيهم نحو ألف وخمسائة مقاتل . ويبدو أنّ بونيفاسيوس قاومهم في المغرب الأوسط ، بجيش جمعه على عجل سنة (٤٣٠ م) ، أو رياءً ، واستطاع غايسيريك أن يستولي على الشاطىء الأفريقي بعد مقاومة . ومع أنّ الفاندال فقدوا عدداً كبيراً من قومهم في هذه المغامرة ، إلاّ أنّهم قلّصوا حكم الرومان عن إفريقية . ووجد الأمبراطور والتينيان نفسه عاجزاً عن ردّ الفاندال ، فعقد معهم معاهدة (١١ شباط — فبراير — ٤٣٥م) أقرهم فيها على النزول في المغرب ، على أن يتطوّعوا في جيش الأمبراطورية .

واستقرّ الفاندال في المغرب ، دون أن يتمكن الرومان من فرض نصوص معاهدتهم على الفاندال ، للضعف الذي كانوا فيه ، فهاجم غايسيريك قرطاجنّة وفتحها (١٩ تشرين الأول — ، أكتوبر — ٤٣٩ م) من غير أن يلقى مقاومة تذكر . . وأعلن غايسيريك نفسه ملكاً في قرطاجنة ، واتّخذها عاصمة له . ثم إنّه تشدّد في سياسته الدينية ، فأبعد الكاثوليكيين من الأشراف ورجال الدين عن البلاد . واستعبد العامة من الكاثوليكيين ممن لم يرضوا مغادرة البلاد ، أو لم يكونوا قادرين على مغادرتها . وكذلك صادر أموال الكاثوليكيين وأملاكهم ، وأعطاها للأريوسيين .

وفي سنة (٤٤٠م) ، هاجم غايسيريك جزيرتي سردانية وصقليّة ، فبعث الروم البيزنطيون أسطولاً لاستقاذهما منه . فلما وصل ذلك الأسطول إلى صقليّة ، اضطرّ الروم إلى ردّه ، لأنّ الهون والفرُس كانوا قد أخذوا يهاجمون تخوم الأمبراطورية ، ثم اضطرّ والتينيان الثالث إلى عقد معاهدة جديدة مع غايسيريك (٤٤٢م) ، يعترف فيها بسيادة الفاندال الكاملة على الشّاطىء الأفريقيّ .

---

(٧) Tarifa, Traducta Julia

وعاد القوط الغربيون إلى محاسنة الفاندال والسوابيين ، فقد أعطى ثيودوريك إحدى بناته إلى هاينريك بن غايسيريك (٤٤٢م) ، كما أعطى بنتاً أخرى من بناته إلى ملك السوابيين ، وذلك قبل موته بعامين فقط .

أما العداوة بين الفاندال والأمبراطورية الرومانية الغربيّة فكانت بازدياد ، ففي سنة (٤٥٥ م) اقتحم غايسيريك مدينة رومة وأباحها لجنده أربعة عشر يوماً . وفي العام التالي استولى على جزيرة سردانية ، ثم استولى على جزيرة صقليّة في سنة (٤٦٩م) .

ز ـ سقوط رومة :

وفي هذا الأثناء . كانت الأمبراطورية الرومانية في الغرب قد ضعفت وتوالى على عرشها أباطرة ضعاف كسالى ، فأخذ القادة الجرمان يعزلون منهم مَن شاءوا ويولّون مَن شاءوا . وكان في الحرس الأمبراطوري المرابط في رافنّا (٧) قائد اسمه آدوفاكر (٨) . ورأى آدوفاكر حال الأباطرة والأمبراطورية فخلع رومولوس أغوسطولوس آخر أباطرة الرمان ، وأعلن نفسه ملكاً على إيطاليا سنة (٤٧٦م) ، ثمّ كتب إلى زينون إمبراطور القسطنطينيّة يخبره بما فعل . ويقرّ بسلطته عليه . فلم يجد زينون بدأ من إقرار آدوفاكر على عرش رومة كَرْهاً . وهكذا انقسمت أوروبة إلى قسمين : قسم شرقيّ هو الأمبراطورية البيزنطية . وقسم غربيّ نشأت فيه الدولة الجرمانية المختلفة التي كانت منها الدول الأوربيّة الحديثة . فكانت سنة (٤٧٦ م) تاريخاً لسقوط رومة ولانقراض الأمبراطورية الرومانية الغربيّة ولنهاية العصور القديمة وبدء العصور الوسطى .

---

(٨) Ravenna.

(٩) Odoacer, Odowakar, Otacher.

ج ـ مقتل آدو فاكو :

وحكم آدوفاكر مملكته بعد سقوط رومة بالعدل والحلم ، ثمّ وسع رقعة ملكه لما استولى على دالماسية ، على الساحل الغربيّ من شبه جزيرة البلقان وهال ذلك الأمبراطور زينون ، فدفع ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين إلى (الهجرة بقومه من شبه جزيرة البلقان إلى إيطاليا ، وعيّنه حاكماً عسكرياً عليها . وهكذا يكون زينون قد تخلّص من القوط وخلق لخصمه آدوفاكو منافساً قوياً ، وذلك في سنة (٤٨٨م). وفي السنة التالية اشتبك آدوفاكو وثيودوريك في حرب ، انهزم فيها آدوفاكو ، فلجأ إلى مدينة رافنّا وكانت حصينة جداً . وبعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، اضطر آدوفاكو إلى الاستسلام ، فاستأمن من ثيودوريك ، ولكنّ ثيودوريك غدر بادوفاكو وذبحه بيده ، في منتصف آذار — مارس — من سنة (٤٩٣ م) ، ثمّ تتبّع أصحابه بالقتل واحداً واحدا .

ط ـ اضطراب أحوال الفاندال :

ولمّا توفيّ غايسيريك ملك الفاندال ، في ٢٥ كانون الثاني — يناير — من سنة (٤٧٧ م) ، لعبت الفوضى في مملكته زماناً طويلاً . ويرجع السبب الأول في ذلك ، إلى أنّ البربر (الأيمازيغ) الذين لم يكونوا راضين عن حكم الرومان ، لم يكونوا راضين أيضاً عن حكم الفاندال . ففي أيام هيلديريك (٥٢٤ — ٥٣٠ م) . وفي سنة (٥٢٥ م استطاع البربر أن يستعيدوا ساحل طنجة وأن يحموا جنوبيّ المغرب الأوسط كلّه ، وانهزم هيلديريك أمام البربر هزائم منكرة .

وأثارت هذه الهزائم نبلاء الفاندال ، فخلعوا هيلديريك ، وقدّموا عليهم زعيماً اسمه : غيلمير — ويقال غلماو و غيليمير — فخلع غيلمير هيلديريك وألقاه في السّجن ثم ملّك مكانه . واستنجد هيلديريك بيوستنيانوس الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، فأن هيلديريك كان مشايعاً للرّوم وعلى مذهبهم ، بينما غيلمير كان أريوسيّاً . وأراد يوستنيانوس أن ينجد هيلديريك لأنه كان يطمع

في استرداد المقاطعات التي كانت قد تساقطت من الأمبراطورية الرومانيّة في غربيّ أوروبّة وشمالي إفريقيّة تحت سنابك البرابرة الجرمان . ولكنّ الاضطراب الذي كان سائداً يومذاك في الأمبراطوريّة الشرقيّة حال دون ذلك . ثم ساءت حال القُسطنطينيّة خاصة ، ونشبت فيها فتنة سنة (٥٣٢ م) من (١١ – ١٨ كانون الثاني – يناير) سقط فيها ثلاثون ألف قتيل على الأقلّ ، وقال بعضهم : بل خمسون ألفاً . ورأى يوستنيانوس أنّ الأمر قد خرج من يديه ، وأنّ ملكه زائل لامَحالة ، فأراد أن يهرب من القسطنطينيّة ناجياً بنفسه . غير أنّ زوجته ثيودورا ثبّتته واستثارت نخوته ، حتى عزم على التمكين لنفسه ولعرشه .

ولما هدأت الحال في القسطنطينيّة ، عاد يوستنيانوس إلى التفكير بشمالي إفريقيّة وبهيلديريك وغيلمير ، فأرسل حملة إلى شمالي إفريقيّة سنة (٥٣٣م) بقيادة أعظم قادته بليساريوس . فانهزم غيلمير ، ثمّ استسلم (آذار – مارس – ٥٣٤ م) ، وقضى يومذاك على مملكة الفاندال .

على أنّ القضاء على مملكة الفاندال في شمالي إفريقيّة ، لم يرد شمالي إفريقيّة إلى الأمبراطورية الرومانية الغربية ، ولا جعل شمالي إفريقيّة تستقرّ تحت سلطان الأمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة ، ذلك لأنّ البربر استمرّوا في ثوراتهم على الرّوم . ومع أنّ الروم قد حاولوا إخضاع البربر في أوقات مختلفة ، في (٥٣٨ م و ٥٣٩ – ٥٤٤ م و ٥٤٦ – ٥٤٨ م) فأنّهم لم يستطيعوا أن يفرضوا على شمالي إفريقيّة سوى ظلّ خفيف من سلطانهم . وعلى عدد قليل من المراكز الساحلية فقط .

ى – القوط الغربيون فى إسبانيا :

ولما وثب ثيودوريك الأكبر ملك القوط الشرقيين في إيطاليا على آدوفاكو وذبحه ، أصهر إلى الفرنجة ، فتزوج بنت ملكهم كلوفيس ، وقيل : بل أخته . وقد غلّ هذا التقارب بين القوط الشرقيين وبين الفرنجة يد الرومان ،

ثمّ مكّن القوط الغربيين من التوسّع في غربيّ أوربّة ، إذ استطاعوا في مطلع القرن السادس للميلاد أن يحتلّوا بقيادة زعيمهم الأريك الثاني (٤٨٤ — ٥٠٧ م) معظم إسبانية . ولكن سرعان ما بدا النزاع بين الفرنجة وبين القوط الغربيين ، وأخذت مملكة القوط الغربيين تتّسع في إسبانيا وتضيق في فرنسة ، حتى تقلّصت عن فرنسة كلّها إلاّ رقعة صغيرة في ساحل البحر الأبيض. وحاول الفرنجة التقدّم إلى إسبانيا ، ولكنّ القوط الغربيين ردّوهم . وفي سنة (٥٠٧ م) نشبت معركة بين كاوفيس ملك الفرنجة وأريك الثاني ملك القوط الغربيين قرب مدينة بواتيه ، سقط فيها الأريك الثاني صريعاً . واستولى الفرنجة على ما بقي للقوط الغربيين من الأرض في جنوبي فرنسة ، واحتلوا عاصمتهم تولوز ، فنقل القوط الغربيون عاصمتهم إلى طُليطلة .

وكان لايزال للّروم البيزنطيين سلطان خفيف على عدد من المدن الساحلية والداخليّة في إسبانيا ، فجعل القوط الغربيون ينتزعون منهم تلك المدن واحدة واحدة ، كما ضمّوا إليهم (٥٨٥ م) مملكة السوابيين ، وهكذا تم في أيام ليوفيغيلد (٥٧٣ — ٥٨٦ م) توحيد المملكة القوطية .

ك ــ الفرنجة فى فرنسة :

بدات غزوات البرابرة لجنوبي فرنسة (الغال) في القرن الرابع للميلاد ، فقد غزاها القوط الغربيون والفاندال والهيطل (الهون) ، ثم غزاها الفرنجة في القرن الخامس الميلادي.

وأقام ميروفيك مملكة للفرنجة في جنوبي فرنسة (٤٤٨م) ، ثم لما توفي (٤٥٨ م) خلفه ابنه شيلديريك . وجاء بعده ابنه كلوفيس (١٠) ، فحكم واحدة وثلاثين عاماً (٤٨١ — ٥١١) وقاتل كلوفيس الرومان ، كما قاتل بعد ذلك القبائل الجرمانية النازلة في جنوبي فرنسة كلها وأسس فيها المملكة الفرنسيّة . واعتنق كلوفيس النصرانية ، وتقبّل المذهب الكاثوليكي من أوّل أمره ، قيل بأغراء من امرأته قلوطلد (١١) أو كلوتيلد .

(١٠) يسميه العرب : قلوديه ، انظر الروض المعطار (٢٧) .
(١١) الروض المعطار (٢٧) .

ولما مات كلوفيس تقسم أبناؤه الأربعة مملكته ، وأشهر أقسام المملكة هي :

أولاً : نوسترية (المملكة الغربيّة) ، وكانت تقع ما بين نهر النّوار ومقاطعة بريتانية ، وما بين بحر المانش ونهر الموز .

ثانياً . أوستراسية (المملكة الشرقيّة) ، أو الجزء الشمالي الشرقي من فرنسة ، وكانت عاصمته مدينة متز (قاعدة اللّورين) .

وتنازع أولاد كلوفيس وأحفاده وتحاربوا ، فقوي النبلاء في ممالكهم ، ثمّ أصبح رؤساء النبلاء حجّاباً في بلاطات ملوك الفرنجة . ثمّ إنّ هؤلاء الحجّاب أخذوا يستبدّون بالحكم شيئاً فشيئاً ، إلى أن حجزوا على الملوك مرة واحدة ، وأصبح الحكم لهم على الحقيقة ، ولأولئك الملوك على المجاز .

ل ــ الهيطل (الهون) :

والهيطل (الهون) جموع آسيوية ، تتصل بأسلاف المغول والأتراك في النّسب البعيد . وهم قوم قصار أشداء عُتاة .

وفي أواسط القرن الرابع للميلاد ، كان الهيطل قد استقروا على التخوم الشرقية من قارة أوروبة . ثم إنهم هزموا القوط الشرقيين وسائر القبائل الجرمانية في شرقي أوروبة . واندفعوا غرباً حتى استقروا على الدانوب وبنوا إمبراطورية امتدت في القرن الخامس للميلاد من جبال القوقاس ونهر الدانوب إلى بحر البلطيق في الشمال .

وتمّت قوة الهيطل في أيام زعيمهم أتيلا (٤٤٥ ــ ٤٥٣ م) الذي قطع بهم نهر الراين وسقط على فرنسة . ولكن ميروفيك ملك الفرنجة تحالف مع القوط الغربيين وهزم الهون في معركة شالون التي تقع على نحو (١٥٠) كيلو متر من باريس جنوباً في شرق ، وذلك في سنة (٤٥١ م) .

واستطاع الهون أن يصلوا إلى أسوار القسطنطينية سنة (٥٥٨م) ، غير أن إمبراطوريتهم ، إمبراطورية أتيلا تقطّعت بعد موته إرْبا (١٢) .

م ـ **الخلاصة :**

هكذا الموقف العسكري والسياسي في أوروبة وإفريقية ، مع لمحات من الموقف العسكري والسياسي في إسبانيا ، سيرد تفصيلها وشيكا .

ويمكن أن نتلمّس بوضوح ، أن المقاتلين كانوا أشداء في قتالهم ، لهم خططهم التوسعية الظاهرة وطموحهم السياسي ، وكانت لهم قيادات قادرة تتميز بقابلياتها على التخطيط السليم والشجاعة والأقدام . وكانت الشعوب المتصارعة تتألف من قبائل لها ضبط القبائل وطاعتها وانقيادها لرئيسها انقياداً أعمى مادام يقودها إلى النصر ، فأذا قادها إلى الهزيمة تخلّت عنه وانقادت لغيره ، وهي تحارب بشجاعة وإقدام وضبط متين .

وكلّ تلك السّمات من سمات القوّة لا من سمات الضعف ، على كلّ حال .

١ ـ فى إسبانيا

ا ـ القوط الغربيون فى اواخر ايامهم :

لما سقطت رومة سنة (٤٧٦ م) ، كان معنى ذلك زوال الأمبراطورية الرومانية الغربية من الوجود . وتحلّل جميع أتباعها المتبربرين (البرابرة) من الولاء لها . وبهذا استقّل القوط الغربيون بأسبانيا ، وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧ م) ، وهو يُعدّ لذلك مؤسّس دولة القوط الغربيين في إسبانيا .

(١٢) استعنت بكتاب الأستاذ الدكتور عمر فروخ ـ العرب والاسلام فى الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط ـ (٢٥ ـ ٣٥) ـ ط ١ ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .

ب ـ دولة القوط الغربيين في إسبانيا :

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط ، على أن يمدّ سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على إسبانيا كلّها ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمالي جبال البرت . وكان الرومان يعتبرون جنوبيّ فرنسة وشمالي إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربيّها إقليماً واحدا ، فحرص يوريك أن تضمّ دولته هذا الأقليم . فاستولى على لُشْدانية (البرتغال) وقرّر فيه سلطانه ، ومدّ حدود مملكته إلى الجنوب ، وأدخل فيها إقليم بيطى (الذي يعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنّة الرومانية القديمة وهي الركن الغربي لشبه الجزيرة الأسبانية . وتابع جهوده في شمالي جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا . وبهذا أصبحت دولته تمتّد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى . إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعبين كبيرين هما : الغاليون الرومان (Gallo - romani) شمالي البرت ، والأسبان الرومان (Hispano - romani) جنوبيّها . وكانا شعبين متحضّرين ، يشتغل معظمهما بالزراعة ، ويزيدان على القوط الغربيين مرّات عديدة ، وكان معظم أهلهما مسيحيين كاثوليك . يسيطر عليهم قساوسة خاضعون لسلطان رومة وأسقفها الكبير : البابا .

وكان القوط الغربيون مسيحيين أريوسيين ، أي أنّهم لا يعتقدون بألوهية المسيح . ولا يعترفون للقساوسة بحقّ الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعذراء مكاناً متميزاً في العقيدة . وكان لهم أسلوبهم الخاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين (فرنجة) وإيبيريين (إسبان) أن نفروا من حكمهم . واجتهد القساوسة في تقوية شعور النّفور هذا ، لأنّ القوط كانوا ينكرون عليهم أي سلطان روحيّ على الناس ، واشتدّ هذا النفور مع الأيام، بسبب ما كان ينزله القوط على القساوسة من اضطهاد، وظلّ مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعا ، فلما نهض كلوفيس ملك الفرنجة وأخذ يمدّ

سلطانه نحو الجنوب . سارع القساوسة لتأييده لأنّه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن تولوز الذي ظلّوا يحكمونه أمداً طويلا ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في شمالي بواتيه سنه (٥٠٧ م) كما ذكرنا وأجلاهم عن جلّ ما كان في سيطرتهم من أرض جنوبيّ فرنسة ، فلم يبق لهم إلاّ إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتدّ حتى نهر الرون وعاصمته نربونة .

وبهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إسبانيا، وأخذت علاقة إسبانيا مع بقيّة العالم الأوروبيّ الواقع إلى شمال جبال البرت تفتر . ولما وحّد القوط الغربيون شبه الجزيرة الأسبانية كلّها تحت سلطانهم ، أخذت إسبانيا تظهر كوحدة سياسية وجنسيّة للمرة الأولى في التاريخ. وذلك أمر له خطورته ، لأنّ الأغريق لم يعرفوا منها إلاّ الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسّمونها ولايات مختلفة لاعلاقة بين بعضها . أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة الأسبانية كلّها قطراً واحداً، واتخذوا لهم عاصمة تقع في وسط شبه الجزيرة، هي : طُليطلة، ولعلّ أظهر أثر لاستقرار القوط في طليطلة، هو تحوّلهم إلى إسبان، في وقت قصير ، لأن المقيم في طليطلة، تنقطع الصِّلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي بحر الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إسبانيّا . أما المقيم في قُرطبة ، فتظل صلته بأفريقية وما يتّصل بها من بلاد الشرق ، أوثق وأظهر من صلاته بجلْيقيّة ونواحي جبال البرت .

واستطاع القوط من عاصمتهم طليطلة، أن يستولوا على إسبانيا كلّها ، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أوّل الأمر ، بسبب ماثار بينهم وبين أهل إسبانيا من منازعات دينيّة ، وبسبب ماشجر بين أمرائهم من خلافات. وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا ، فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولكن لم يلبث أحد قوّاد القوط الغربيين ألأقوياء أن ثار بهذا الدّخيل ، وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا ، بفضل معاونة حربيّة أمده بها جستنيان إمبراطور بيزنطة في سنة (٥٥٤ م) ، وانضم إليه أهل البلاد من الأسبان الرومان الكاثوليك ، واحتل المنطقة الواقعة بين نهر الوادي الكبير ونهر جُكَرْ (نهر شقر) ، وأنفصل هذا الأقليم عن طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الغربيين الأريوسيين هو : ليوفيجيلد(Liuvigild) — (٥٦٨ – ٥٨٦ م) ، وكان محارباً مقداماً ظلّ يحارب الكاثوليكيين طول حياته . وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) ، فاستبان أنّه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد ، إلاّ إذا تخلّى ملوكها عن المذهب الأريوسيّ . وتخلّى هذا الملك عن المذهب الأريوسي ، وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة (٥٨٧م) : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة . وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الوقت . وهذا الحادث الخطير . سيظل مؤثراً في التاريخ الأسباني كلّه ، فأن الكاثوليكية تأصّلت في أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوّة ميل الأسبان للتشدّد في الأيمان ، والتّعصّب لكلّ ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الأسبان ، وفي مجرى تاريخهم كلّه .

وأعقب هذا التّحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينيّة اللغة الرسمية في البلاد . ووثق الصّلات بين إسبانيا والبابويّة . وقد تفانى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابويّة تمانياً شجّع البابوات على بسط نفوذهم الديني – بل السياسي – في البلاد . وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثّل سلطان البابا ونفوذه ، وأيدّه الشّعب الأسباني الروماني الذي لم يتخلّ عن الكاثوليكية بعد ذلك . ومن هنا نفهم السرّ . في أنّ نفوذ أسقف طليطلة لم يقلّ في وقت من الأوقات في التاريخ الأسباني المسيحي عن نفوذ الملوك . إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . وكان تحوّل القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعّالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والأسباني الروماني . فقد ظلاّ متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان . فأمّا وقد اتّفقا في العقيدة . فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنّه لم يتمّ إلاّ على صورة مصغّرة جداً ، لأنّ القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشّعب الحاكم .

وكانت الملكيّة القوطيّة انتخابيّة ، أي أنّ نفراً من كبار أهل المملكة والأمراء ، كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم : فكان هذا النظام مدعاة لأثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، فلا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات .

بيد أننا ينبغي أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنّهم كانوا قادرين صالحين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثـل : ششبرت (Sisiberto) — (٦١٢ — ٦٢١ م) الذي استـولى على جميع أرجاء إسبانيـا ، وشنداسفنتو (Chindaswinto) — (٦٤٩ — ٦٧٢ م) الذي ألغى التفرقة بين أفراد الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القـديم الذي كان قد سنّه الملك ألاريك الثـاني ، والقـانون القـوطي الـذي وضعـه يوريك ، مما قرّر السّلام بين أهل المملكة ، وجنّبها مصاعب وخلافات شتى .

ولعلّ أكبر ملوك هـؤلاء القوط هو وامبا (Wamba)—(٦٧٢—٦٨٠م)، فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقى للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبّرها هلدريك كونت نيْمَهْ (نيم) ، وأخمد ثورة أخرى دبّرها باوْلُس أمير سبتمانية للانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً ، فأحبّه الناس والتفّوا حوله ، وبلغ من تعلّق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من الخوارق ، منها : أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرّهيب ، إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه ، تطير فيه نحلة من ذهب (١٤) . ومن الواضح أنّ ذلك لم يحدث ، ولكنه شائع في المصادر الأجنبية وبين القوط أيضا .

(١٣) Bellesteros, Rafael. op. cit. P. 37 — 39.

(١٤) Saavedra, op. cit. apendice P. 147

وقد انتهى حكم وامبْا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ، ودس له مَنْ سقاه جرعة مخدِّرة لم تلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق . وحسبه الناس قد مات ، وهيّئوه ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك ، إذ عاد إلى رشده . وبدلاً من أن ينهض لتأديب مَنْ ائتمروا به على هذا النحو الغريب . ترك العرش للطامعين ، وترهّب وقضى بقيّة حياته في الدير .

وعندما اعتلى غَيْطَشَة (وِتيزا : Achila) العرش في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠ م) . كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات التي كان كبار القوط يديرونها ، ولا نعرف حقيقة أمر هذا الملك ، لأنّ النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، والظاهر أنّ معظم النصوص الاسبانية تثني عليه . فقد حاول جهده أن يصلح الأمور ، فعفا عمّن كان والده أخيكا قد أساء إليهم . ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط . فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه . فأخذوا يثورون عليه في نواحي المملكة ، وأخذ يحاربهم ويحبط كلّ مؤامراتهم . فلما علت به السن ، عجز عن أن ينهض لكلّ واثب به مدبرٍ عليه . وتآمر عليه أهله . واستطاعت زوجة أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وَقيلَه (أخيــلا Achila) . وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية . وكان هذا الاعلان . حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط . إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطشة . ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته . ليخلو لهم العرش . ويفعلوا به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل من جانبه في القضاء على كلّ محاولة يقومون بها . لأن النصوص تحدّثنا أنه عاقب تيوفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه . ونفى ثائراً آخر اسمه : بلايُه من البلاط (١٥) .

(١٥) وانظر المراجع المعطاة في Saavedra. op. cit. P. 29.

ويبدو أيضاً أنّه اساء الظنّ بيهود، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، فقد اتّهمهم غيطشة بالتدبير عليه ، وبالتآمر مع مَن تسميهم النصوص الأسبانية : أهل ما وراء البحر (Lostransmarinos) ، ومعنى ذلك أنهم اتّصلوا بأعداء القوط في ما وراء البحر ، أي خارج إسبانيا .

ولسنا بأي حال بحاجة إلى البحث عن أسباب هذا الاضطهاد . لأنّ الأسبان كانوا طوال تاريخهم من أقسى الناس على مخالفيهم في الدين ، وعلى يهود بخاصة . ولكن يبدو أنّ غيطشة رجع عن سياسته في اضطهاد يهود في أخريات أيامه ، فتحدّث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عن يهود . فأسخط رجال الكنيسة عليه . وأخذوا يغرون الناس به . حتى اشتدّ عليه سخط الناس . وتحدّث أهل البلاد . الرومان الأسبان في الوثوب به أو معاونة أوّل ثائر عليه (١٦) .

ومات غيطشة ميتة طبيعية في أواخر سنة (٧٠٨م) أو أوائل سنة (٧٠٩م). وكانت مختلف الطوائف تنتظر موته . وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدّهم ميلاً إلى الخلاف ، ذلك لأنّ غيطشة ترك من بعده زوجاً طامحة في العرش،وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أُبّه (Oppa) ، وكان أسقفاً لأشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمْله عند المقرى وابن القوطية وصحته وُقِلّه) وألمند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس . أرطبان) . وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر هو سيسبرتو (سسبرت . سبرى . سبرة في النصوص العربية) وتزعم أنّه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له .

(١٦) Saavedro. op. cit. P. 30.

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثل أخيلا ، وتخوّف كثير منهم من مطامع الوصي رخشندش واستبداده ، فامتنع مَن أقام منهم في طليطلة عن الطّاعة ، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً فيها ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين . وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة ففرا منها ، واستمرت هذه الفوضى نحو سنة ونصف السنة ، واستطاع الوصي أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار . وتحبّب إلى عامة أهل البلاد الرومان الأسبان من أهل المزارع والمدن واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب . فاجتمع منهم نفر وائتلفوا . واعتبروا أنفسهم : (مجلس شيوخ وكبراء) له الحق في أن يقررٌ في شؤون دولة القوط كما يرى . ثم اختاروا واحداً منهم اسمه : رودريكو . أو رودريك . أو رودريجو : لُذَرِيق . وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة . واستعدّوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحد السيف .

وتجمع النصوص كلّها . على أنّ هذه الجماعة التي بايعت لذريق . كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم وأنّهم أرادوا باجتماعهم هذا ، إنقاذ دولة القوط وتقويم ما انهار من بنيانها . فأذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الأشارة إليه . من أن رخشندش أراد أن يستعين بالرومان الأسبان ليثبت أمر أخيلا . استطعنا أن نستنتج أنّ المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط . بل كان فيه لون من ثورة أهل البلاد على القوط ، ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم . ولعل هذا الاستنتاج . يتيح لنـــا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الأسبان -- قدامي ومحدثين -- نفيه وإنكاره ، وهو أنّ دولة القوط . لم تكن في نظر أهل البلاد ، دولة قومية ، بل ظلّت في نظر غالبيتهم دولة أجانب . لقى الناس في ظلّهم كثيراً من الأذى . وحاولوا التخلّص منهم مرات كثيرة .

جـ لذَرِيق :

الخلاف شديد حول أصل لذريق ، فمن قائل : إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسّلم ، ومن قائل : إنّه ينحدر من أصلاب ملكيّة ، وإنّ جده الملك شِنداسفنتو ، ومن قائل : إنه ابن تيود فريدو دوق قرطبة الذي كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه . ومهما يكن من أمر ، فأن المراجع الأسبانية اللاتينية القديمة ، تُجمع على أنّه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادّعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا . وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك في قرطبة عاصمة ولايته .

ولم يسر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رَخَشَندش ورجاله في موقعة حاسمة . وكان قد أعلن نفسه ملكاً في ربيع سنة (٧١٠ م) ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة : جواد البيتي (وادي لَكَّه) بسنة ، وكان ذلك في السنة الخامسة من حكم الوليد بن عبدالملك بن مروان في دمشق ، كما يقول : (النص اللاتيني المجهول المؤلّف) . ويذهب راوية آخر ، إلى أنه ذهب إلى بَطَلْيَوْس ، دون أن يذكر لنا السبب في الذهاب إلى ذلك البلد البعيد . والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير ، فيه جلّة قوّاد القوط ونبلائهم ، وهزم رَخَشَندش في واقعة حاسمة ، قتل فيها هذا الأخير وتفرّق أتباعه . أما أبناء غيطشة ، فلم يجدوا مفراً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففرّوا إلى إفريقية ، وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش ، والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش .

ويبدو أن لذريق ، ظل يخشى طيلة أيام حكمه القصيرة ، عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ، ومحاولة استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثَمّ حرص على أن ينفّر الناس منهم ، بالمبالغة في تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على يهود . فلا غرابة أن نجد عند معظم المؤرخين الأسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده ، وما كانوا يدبّرون للبلد وأهله من سوء . وقد تصدى نفر من المؤرخين الأسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، بيد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأبنائه ، والأصرار على على تبرئة لذريق من كلّ عيب ، وتصويره في صورة بطل وطني جاهد المسلمين من بلاده . وبذل كلّ ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كلَّ هذا الجهد لا يمنعنا من تعرّف شخص لذريق وأحوال عصره تعرّفاً معقولاً ، هو أقرب ما يكون إلى الصّواب .

ومن الواضح . أنّ الرّجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنّه ظلّ حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لانّ هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلّة الشعب الأسباني الروماني ويهود إسبانيا .

ومصداق ذلك . أنّ لذريق لم يكد الأمر يستقر له ، حتى مضى يرغم رجال الدين . على إصدار قرارات يتّهمون فيها غيطشة بكلّ شر ، ويصورونه للناس بصورة جبّار ظالم . أراد بالناس وبالكنيسة كلّ أذى ، وأنّ لذريق لم ينهض إلاّ لأنقاذ الناس من شرّه وشرّ أولاده وكلّ مَن كان يلوذ بهم . وقد أجاب رجال الدين طلبه . فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق، بأسوأ الاتّهامات لغيطشة وبنيه ويهود .

ومصداق ذلك أيضاً . أنّ لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير ، يحارب الثائرين عليه في كلّ ناحية . وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب .

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق، أنه كان في حاجة مستمرة مُلحّة للمال، لأن البلاد كانت مضطربة في أيامه، لايكاد يطيعه في نواحيها إلاّ إقليم صغير.

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال، هي التي دفعته إلى السّطو على الذّخائر الغالية، التي كان ملوك القوط قبله، قد كدّسوها في كنيستي سان پدروو سان بابلو، فقد جرت عادة كلّ ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين؛ فلما اشتدت حاجة لذريق للمال، حدثته نفسه بأخذ بعض هذه الذّخائر، للانتفاع بها. وقد حذره القُسس من أن يفعل ذلك، ولكنّه لم يصغ، ومضى ففتح مستودع الذخائر. ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر، فلم يجرؤ على أخذ شيء، لأن رهبة المكان منعته من أن ينفّذ ما أراد. وتحدّث الناس في ذلك وتناقلوه، حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس، ورواها المسلمون على صورة لا تخلو من طرافة(١٧).

وقد استطاع لذريق، أن يقضي على كلّ أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم، بعد أن استمرّ يوالي غزوهم أشهراً متتابعة، فاستتبّ له الأمر من ناحيتهم، وأوشك أن يستتب له الأمر في سائر البلاد.

د ـ احوال اسبانيا تحت حكم القوط :

لم يغيّر القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الأسباني في العصر الروماني: ظلّت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسّيطرة على الناس، وظلّ الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هي وسط بين الحرّية والرقّ، وظلّت بقية أهل البلاد رقيق أرض او عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة. وقد ائتلف الأغنياء مع القوط، لكي يحتفظوا بأملاكهم، واستقرّ نفر كبير من هؤلاء بالمزارع، واشتغلوا بالزراعة، وإن بقيت أغلبيّتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش على إتاوات وضرائب فرضوها على الزرّاع وضعاف أهل المدن، حتى ساء أمرهم كثيراً.

(١٧) نفح الطيب (١/٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وقد اورد معظم مورخي المسلمين هذه الأسطورة، وانظر: Saavedra. op. cit. PP. 40 — 43.

ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلّوا غرباء عن البلاد في الغالب ، ولم يخلّفوا فيها من الآثار بما يمكن مقارنته بما خلّفه الفرنجة في فرنسة مثلا .

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأنّ العصر كلّه كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبة كلّها لا في إسبانيا وحدها . وانهارت في نواحي غرب أوروبة قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم ، الذي يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدّون عنها مالاً . وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بوساطة الفلاّحين الأحرار أو العبيد . فلما طال الزّمن . واستمرّ كلّ فلاّح يزرع نفس القطعة من الأرض سنة بعد سنة ، نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكيّة . فلما أقبل البرابرة ، واستولوا على أرض الدولة ، آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرّض حقّ هؤلاء الزرّاع الأحرار في أرضهم للضياع ،وغصب البرابرة من الكثير منهم أرضه واستقرّوا فيها .وأجبروه على زراعتها ،كأنه عبد لهم أو قنّ ، ولجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين القادمين.وشاعت هذه الطريقة وعمت.ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة،هي طبقة المحميين (buccellarii) .وكان القانون يعتبرهم أحرارا ،ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم ، جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

وأقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيّدها الأشراف وملاّك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء . واستمرّوا يدبّرون شؤون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلّت البلاد مقسمّة إلى أقاليم ومدن ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت ، وكان كلّ من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين ، يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية ، في النواحي المالية والقضائية والحربية ، وكان هؤلاء الموظفون طبقات ، تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كلّ منهم .

وكان الملك يحكم حكماً استبدادياً ، أي منفرداً برأيه ، يقضي في شؤون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء ، يساعده في كلّ شيء ، ولكنّ الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظلّ من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها . ويقضون في الأحكام بما يريدون . وكان المفروض أن يُنتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكنّ العادة جرت أن يعتلي العرش أقواهم بحدّ السيف (١٨) .

هـ ـ مجلس طليطلة :

ولكن كان للدولة القوطية نظام طيّب ، له أثر حسن في سير الأمور في دولة القوط ، هو نظام : (مجلس طليطلة) الذي كان يجتمع بين الحين والحين ، للنظر في أمور الدولة الكبرى . وكان أصل هذا المجلس دينياً ، إذ كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليك ، يعقدونه للنّظر في أمر كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق ملوك القوط الكاثوليكية في عصر ريكاريدو ، أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك بعقده ، ويحضره كبار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينيا ، يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا ، ثم اتّسع سلطانه وتناول القضاء وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضمّ مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحا مجلساً أعلى للدولة . وقد كان الملوك أوّل السّاعين في توحيد المجلسين ، لأنّهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوّة ومهابة ، بالتّصديق عليها من هذه الهيئة التي تضمّ كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة . (١٩)

(١٨) Ballestaras. op. cit. P. 39 — 40.

(١٩) Ballesteron. op. cit. P. 40.

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سنّ أعضاؤها مع الزّمن قانوناً شاملاً يضمن حريات النـاس ويسـوى بينهم : قوطاً وإسبانيين ، وهو المسمى : (Fuero Juzg o) (٢٠) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب في تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقرّ والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيىء المطلق بشؤون الرعيّة .

و ـ المجتمع الأسبانى ايام السقوط :

والخلاف شديد بين المؤرّخين حول أحوال المجتمع الأسباني خلال هذا العصر القوطي . فمعظم الأسبان شديدو العصبيّة لهذا العصر ، يذهبون إلى أن الناس كانوا يستمتعون فيه برخاء ظاهر في كلّ ناحية من نواحي الحياة ، وأنّ الزرّاع والصنّاع كانوا في رفاهية ، ولا يظلمون، وأن موارد البلاد في ازدياد مستمر ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنّما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا أن النهضة التي حدثت في ظلال الأسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنّما كانت البلاد سائرة في طريقها على أي حال .

(٢٠) عن اللاتينية Forum Judicum (القانون القوطىّ) اى مجموعة القوانين القوطيّة ، وقد تكون في مدى قرن ، وقد بداه يوريك ، ثمّ اضاف اليه خلفه الاريك الثانى مجموعة من القوانين الرومانية تسمى : (Breviarum) وهو مختصر القوانين التى كانت تطبّق على الرومان ، ويعزى الى شندا سفنتو الفضل فى مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منهما يطبّق على الناس اجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعيّة عظيمة ، ولو طبّقت على الناس ، لكانت سيرة القوط في اسبانيا سيرة اخرى .
Maurice LeGendre, Nouvelle Histoire d' Espagne. pp. 73. sqq.
انظر فجر الأندلس (٢٤) الفقرة (١) .

أما حقيقة الحال : فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، فلم يكن الحال بدرجة من السوء بهذا الشكل الذي يصوره دوزى في كتابه ، ولكنّه كان سيئاً على كلّ حال ، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهيّة والرقى في عصور المسلمين . وذلك هو الرأى الذي يميل إليه المؤرخون المنصفون من الأسبان أنفسهم ، بعد أن تجلّت مظاهر الحضارة الأسلامية الأسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يمارى بها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطربا كنظام المجتمع القوطي الأسباني قبل الفتح الأسلامي (٢١) .

وطبيعي ألاّ يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الروماني القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعي مقبول . قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقرّوا في أرضها ويقتبسوا نُظُمها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحلّ ، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة ، توجّهه توجيهاً جديداً .

وينبغي أن نقول أيضاً ، إنّ القوط ، كانوا أقلّ إنسانية ونظاماً من طوائف البرابرة الأخرى ، التي استقرت في إسبانيا ، حتى الفاندال أنفسهم ، لأنّ الفاندال كانوا لا يبهظون البلاد التي ينزلون فيها ، بتكاليف حكوميّة ضخمة ، تريد أن تستقصى كلّ شيء ، ونتشبّه بالرومان : كانـوا يزيلون النّظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساويء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعمّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير ، والقنّ الفقير ، إلى الغنى صاحب الضياع ؛ ولم يتدخل الفندال أو السوييف في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخّلوا واضطهدوا مخالفيهم كما رأينا . فعمّ بلاؤهم الناس أجمعين (٢٢) .

(٢١) Dozy. Musulmans d' Espagne, 1, pp. 258 — 259.

(٢٢) Dozy. op. cit. 1, P. 258.

ولم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، ولم يحاول أحدهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، وكان عدد العبيد كبيراً جداً ، وكان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة قاسية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كلّ إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا يترقبون الخلاص (٢٣) .

ولم يكن أوساط الناس من أهل المدن والصنّاع وأحرار أالزرّاع أحسن حالاً ، لأنّ ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفّف عن الناس مظالم الحكّام أو يجعلهم في مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أي لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الديني بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حين كانوا أريسيين ، ثمّ اضطهادهم لليهود على النحو الذي رأيناه في أيام لذريق ، مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من حكم القوط ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكي يسوّغوا عسفهم بهم . والغالب أنّ رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرّضين على هذا الأضطهاد ، ولو أن يهود إسبانيا كانوا على اتصال بيهود إفريقية وبيهود أوروبة أيضا . عداوة للقوط وللكاثوليك ، ومحاولة لألحاق الأذى بهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وحينما تقادم العهد بالقوط في إسبانيا ، وتمتّعوا بخيراتها الوفيرة ، مالت بهم نفوسهم إلى الدّعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أنّ الحروب

(٢٣) Dozy. Musulmans d, Espagne, 1, P. 265.

المتعدّدة بين ملوك القوط ونبلائهم ، هي التي حفزّت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن اعداد محاربي القوط القليلة توزّعت بين الملوك والثائرين ، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة ، ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها (٢٤) .

ز ـ الحالة الثقافية :

لابد من الأشارة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح الأسلامي ، فهذه هي الناحية الوحيدة التي سيجد فيها المسلمون أساساً طيّباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفنّ ، وضع الفينيقيّون أساس ذلك كلّه ، وزاد عليه اليونان والرومان . ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى أمام . ولعلّ في هذا بعض ما يفسّر لنا سرّاً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا ، على قلّة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين المسيحي والأسلامي .

لقد تأصّلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في فرنسة مثلا ، فلم يكد القرن السادس الميلادي يهلّ ، حتى كانت البلاد تفيض بالأديرة يقيم فيها الرّهبان يدرسون ويتذاكرون ، والكنائس يقوم بأمرها قُسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف .

وقد تركت أيام القوط في إسبانيا قبل الفتح الأسلامي آثاراً في الدراسات الدينية المسيحية بخاصة والأخلاقية مقتبسة من الأفكار اليونانية والرومانية على الأكثر ، والتاريخية التي تفسرّ التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ، والأدبية .

ولم يخلّف القوط في الفنون إلاّ ثروة معمارية فقيرة جداً ، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد المخمسّ إلى القوط (٢٥) .

(٢٤) Dozy. Musulmans d' Espagne, 1, P. 269.

(٢٥) Ballestexos. op. cit. P. 51.

وخلاصة القول ، إن إسبانيا القوطية ، لم تكن شرّاً كلّها ، كما يذهب قسم من المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلّها ، كما يزعم الأسبان ، وإنما كانت جوانبها الأجتماعية ضعيفة جداً ، بل تُعدّ امتداداً للعصر الروماني المضمحل . لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدّية ، لاتملك من الأسس الأجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كأسبانيا ، ومجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذي ضمّ أخلاطاً من كل صنف . وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني ،فلم يوفّقوا . لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه . ولم يصب الناس من وراء ذلك إلاّ شرّ بالغ .

وأما الناحية الفكرية ، فكانت خيراً خالصاً ، لأنّ الذين قاموا بها كانوا من الأسبان الأصليين بعد أن اعتنقوا المسيحية وتأثّروا بها ، فلاعجب أن يظهر من بينهم بعض العلماء ، لأنّ البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان .

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبة الغربية كلها في هذه الناحية (٢٦) ، كما ستصبح إسبانيا الأسلامية المركز الأول للأشعاع الحضاري في أوروبة ، كما اعترف بذلك المفكرون الأجانب كافة ، فقد كانت إسبانيا المسلمة عاملاً من العوامل الأساسية ليقظة أوروبة . يوم كانت أوروبة في ظلام دامس . فكان فضل الأسلام على الحضارة الأوروبية فضلاً عظيما .

١ ـ شخصيته يُلْيَان :

كانت مدينة سَبْتَة وما يجاورها . تُحكم من قبل حاكم مسيحي يدعى : يُلْيان (جوليان ، يوليان . وليان . بليان ، إليان ، جليان) كانت له عدّة وقوّة . لم ير لها موسى بن نُصَيْر مثيلاً من قبل (٢٧) . فقد هاجم موسى

---

(٢٦) فجر الأندلس (٢ ــ ٣١) .
(٢٧) اخبار مجموعة (٤) .

سبتة ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فعقد الصلح مع يليان حاكم المدينة ، وأقره في منصبه ، مقابل اعتراف الأخير بالفتح الأسلامي (٢٨) .

وقد شجّع يليان موسى بن نصير وطارق بن زياد على فتح الأندلس ، كما عاون المسلمين في الفتح ، وكان له نشاط واضح قبل الفتح وفي أيامه . وسيرد ذكر تفاصيل نشاطه في سِيَر قادة الفتح .

والاختلاف بين الباحثين في أمرين : الأول في شخصية يليان ، والثاني في الأسباب التي حملته على تشجيع موسى وطارق على الفتح ،ومعاونة الفاتحين لأنجاز الفتح .

والروايات متناقضة حول شخصيةيليان،فيقال:إنه مسيحي من إفريقية(٢٩)، وقيل : إنه مسيحي من بربر غمارة (٣٠)،وقيل : إنه رومي (٣١)، وقيل : قوطي من أتباع ملك إسبانيا (٣٢) .

وجاء المؤرِّخون الأجانب المحدثون ، فحقّقوا شخصية يُلْيان ، فأثبت قسم منهم وجوده فعلاً ، بعد أن كان قسم منهم قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب(٣٣).وجاء من بعد مَن أثبت وجوده ، وهو مؤرِّخٌ إسباني

---

(٢٨) ابن خلدون (٦/٤٣٧ ـ ٤٣٨) واخبار مجموعة (٤) ونفح الطيب (١/٢٣٠) .

(٢٩) Chr. 754, P. 150, No. 40.

(٣٠) ابن خلدون (٦/٤٣٧ ـ ٤٣٨) والسلاوى (١/٦٥) و . Codera, Vll, PP. 45 - 94.

(٣١) الأحاطة (برواية ابن القوطية) ـ (١/١٠٠) وابن الكردبوس (٤٢) وابن الأثير (٤/١٠٦) والمراكشى (٦) والبيان المغرب (١/٢٦) والنويري (٢٢/١٤) .

(٣٢) ابن عبد الحكم (٢٠٥) واخبار مجموعة (٤) وفتح الأندلس (٢ ـ ٣) وابن الكردبوس (٤٢ و ٤٤) وابـن الشباط (١٠٥) والبيان المغرب (١/٢٠٣) و (٢/٦ ـ ٧) والحميرى (٧) ونفح الطيب (١/٢٥١) .

(٣٣) Dozy ... Recherches (3 ed.) 1, PP. 57 sqq.

أثبت أصله والدور الذي قام به هو واولاده (٣٤) ،وقد ذهب هذا المؤرخ إلى أن يليان فارسي الأصل ، وأنه من الأزارقة . وقد استنتج ذلك من أنّ يليان خلّف ولداً اسمه : بَلْكايش ، أسلم بعد الفتح ، وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفُرس الأزارقة .

أما المؤرخون العرب والمسلمون ، فتابعوا المؤرخين الأجانب على الأكثر . ولم يروا رأياً جديدا .

ويليان مسيحي بلا خلاف ، وليس من بربر غمارة ، وبقاؤه مدة طويلة في سبتة بين البربر جعل بعض المؤرخين يتوهم أنه من البربر ، وهو ليس منهم . لأن مَن كان مسيطراً على شمالي إفريقية في حينه لا يولي على البربر بربرياً ، خوفاً من انحيازه إلى قومه وتحيزه لهم على الأجنبي . وقائمة حكام الروم على الشمال الأفريقي تثبت أن الحكام جميعاً بدون استثناء ، لم يكونوا من البربر . أما الذين زعموا أن يليان قوطي ، فلا سند لهم ، لأننا نعلم بأنّ القوط الغربيين فقدوا معظم ممتلكاتهم في شمالي إفريقية منذ أيام الملك (Theudis) (٣٥) -(٥٣١-٥٤٨ م) . ولقد كانت سَبْتَة بأيدي البيزنطيين منذ منتصف القرن السابع الميلادي . ولا توجد هناك أية إشارة الى وقوع ما يخالف ذلك (٣٦) . ولهذا يمكن استنتاج أنّ يليان كان الحاكم البيزنطي العام لولاية موريطانيا الطنجية (Mauretania Tingtana) وهو إقليم كان في ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لأسبانيا القوطية ، وأنّ يليان

---

(٣٤) Saavedra, PP. 48. وهذه سلسلة سلالة يليان بعد الفتح بحسب ماتذكره الروايات الاسلامية : يليان ← بلكايش ، عبدالله ، الحكم . سليمان ، ايوب (توفى سنة ٣٢٦ هـ) ، سليمان (توفى سنة (٣٧٩ هـ) ، احمد (توفى سنة ٣٨٨ هـ) . وقد اشتهر الثلاثة الاخيرون بصدق الاسلام وسعة العلم . انظر فجر الاندلس (٥٣ - ٥٤) - الهامش .

(٣٥) CMH, Vol, 11, P. 163., Shaw, op. cit, P. 222.

(٣٦) Livermore, PP. 191, 245.

كان يقوم بواجبات الحاكم العام (Exarcus) لهذه الناحية من قبل الأمبراطور البيزنطي ، وأنه بدأ ولايته في سن صغيرة (٣٧) ، وأقام في هذه الناحية زماناً طويلا . ولما كانت موريطانيا الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطية ، ولما كانت أمــور الدولة البيزنطية في ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكّنها من الأشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة (٣٨) .

ولما كانت تلك الدولة قد خسرت ولاياتها كافة في شمالي إفريقية بالفتح الأسلامي ، ولم يبق منها غير ولاية سبتة وحدها ، لا عون لها ولا سند ، غير الدولة الأسبانية ، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة البيزنطية ، وأصبح كالحاكم المستقل في هذه الناحية . وإذ انقطعت عنه الأمدادات من الدولة البيزنطية ، فقد أخذ يوثّق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر . حتى كسب ثقتها وودّها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على بعض المؤرخين ، فحسبوه من البربر . كما أخذ يوثّق علاقاته بالأسبان ليحظى منهم بالأمدادات التي تعينه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين . ولما وصل موسى بن نصير إلى إقليم طنْجة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م) وحاصر مدينة طنجة وفتحها (٣٩) ، سار على رأس جيشه إلى مدائن شط البحر ، وعلى رأسها سَبْتَة ، وعليها يليان ، فقاتله موسى ، ولكنه ألفاه في نَجْدة وقوّة وعُدّة ، فلم يُطِقْه ، فرجع إلى طنجة ، وأقام هناك بمن معه . وأخذ موسى بالغارات على منطقة سبتة ، والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من إسبانيا من قِبل ملكها غَيْطَشَة . فهم يذبّون عن سبتة ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة (٤٠) ، فكانت علاقة يليان بغيطشة من أهم أسباب نجاحه في الدفاع عن منطقته وحمايتها . ولكنّ هذه العلاقة كانت علاقة مصلحة متبادلة : مصلحة

(٣٧) ابن الأثير (٤/١٠٦) .
(٣٨) فجر الأندلس (٥٤) .
(٣٩) نفح الطيب (١/٢١٥ و ٢٣٤) .
(٤٠) نفح الطيب (١/٢٣٤) .

يليان ، تَلَقّى العون من غيطشة بعد أن حرم من عون القسطنطينية ، ومصلحة غيطشة ، أن تصبح سبتة ومنطقتها الخط الدفاعي الأول عبر بحر الزقاق عن إسبانيا تجاه الفتح الأسلامي ،وكسب هذه المنطقة لأسبانيا في الحاضر والمستقبل ، وما كان تعاون يليان مع القوط الغربيين إلا مضطراً (٤١) .

والمؤرخ الأجنبي الذي زعم أنّ يليان فارسي ، لأنه خلّف ولداً اسمه : بْلكَايش ، وهو اسم فارسي ، فأن زعمه متهافت وغير منطقي ولا معقول ، فكثير من الفرس أسماؤهم عربية ، وكثير من العرب أسماؤهم غير عربية ، وكثير من المسيحيين أسماؤهم إسلامية ، وكثير من أبناء المسيحيين أسماؤهم عربية ، فلا يصبح الفارسي عربياً ولا العربي فارسياً ولا المسيحي مسلماً استناداً على اسمه او اسم ولده ، ولو زعم مثل هذا الزعم مؤرخ عربي أو مسلم ، لاعتبر زعمه فضيحة مدوِّية.ولسارت بأخبارها الركبان . ولكن المؤرخ الذي زعم ذلك ليس عربياً ولا مسلماً ،بل أجنبي مسيحي،ولهذا غض النظر عنه.

إنّ يليان مسيحي رومي . كان الحاكم البيزنطي العام على ولاية سَبْتَة ، ثم تعاون مع غيطشة حتى مات ، فتعاون مع لذريق الذي خلف غيطشة ، ثم تعاون مع موسى بن نصير وطارق بن زياد لأسباب مصلحية بالنسبة للطرفين كما رأينا .

١ ـ يلياون والمسلمون الفاتحون :

منعت مشاكل القوط الغربيين الداخلية بعد رحيل غيطشة سنة (٧٠٨م) أو سنة (٧٠٩م) من الاستمرار في معاونة يليان (٤٣) ، فأصبح وحيداً أمام تيار الفتح الأسلامي الجارف ، وأصبحت ولايته وحدها هدفاً للفتح ، فلم يكن بأمكانه أن يثبت طويلا .

(٤١) أخبار مجموعة (٤) .

(٤٢) Saavedra. op. cit. PP. 30.

(٤٣) Dozy. P. 230 ; Shaw. op. cit. 221 — 222 ; Livarmore. PP. 245 — 246. عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس ـ بيروت ـ ١٩٦٢ ـ (٤٧) .

لقد رأى يليان الولايات البيزنطية في الشمال الأفريقي تنهار واحدة بعد أخرى ، أمام زحف المسلمين الفاتحين ، وكان آخر تلك الولايات ولاية طنجة المجاورة لولايته والتي فتحها المسلمون ، فلم يبق أمام يليان غير التعاون مع المسلمين الفاتحين ، ليبقى في منصبه على ولاية سبتة ، وإلاّ فأن المسلمين قادرون على فتح ولايته عَنْوة كما فتحوا غيرها من الولايات ، ولن يطول انتظار يليان ليرى مصير ولايته المتوقّع الذي لاشك فيه .

إنّ حرمان يليان من عون ملك القوط ومعاونته ، هو السبب غير المباشر لتقرّبه من المسلمين الفاتحين وتعاونه معهم ومعاونته لهم .

ولسنا نعرف شيئاً عن الأسس التي ارتكز عليها السلام بين يليان والمسلمين الفاتحين ، وكلّ ما نعرفه أن طارق بن زياد حاول فتح سبتة كما حاول موسى قبله ، فلم يستطع فتحها عَنْوة ، فاكتفى بالتودّد إلى يليان ومجاملته ، وفجأة سلّم يليان سبتة للمسلمين الفاتحين صلحاً ، وشجّعهم على فتح الأندلس ، وعرض عليهم معاونته لهم وتعاونه معهم من أجل تحقيق الفتح .

والمصادر الأسلامية تذكر سبباً مباشراً لأستسلام يليان وتشجيعه على فتح الأندلس ، وتعاونه مع المسلمين الفاتحين لتحقيق الفتح .

فقد ذكرت . أنه كان من سِيَر أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم ، أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتّنويه بهم ، إلى بلاط الملك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا في خدمته . ويتأدبوا بأدبه . وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا ، أنكح بعضَهم بعضاً استئلافاً لآبائهم ، وحمل صَدُقاتهم ، وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهنّ . واتفق أن فعل ذلك يُلْيَان عامل لُذَريق على سبتة . وكانت يومئذ في يدِ صاحب الأندلس ، وأهلها على النّصرانية ، فركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه . فلما صارت عند لُذَريق وقعَت عينُه عليها فأعجبته وأحبّها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها . واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك ، سراً بمكاتبة خفيّة ، فأحفظه شأنها جداً ، واشتدت حميّته . وأقسم ليزيلنّ سلطانه . وليحفرنّ تحت قدميه . فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس .

ثمّ إنّ يليان ركبَ بحر الزقاق من سَبْتَة ، في أصعب الأوقات . في ينير(٤٤) قلب الشتاء . فصار بالأندلس . وأقبل إلى طُلَيْطلة نحو الملك لذريق . فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت . وسأله عمّا لديه ، ولِمَ جاء في مثل وقته ؛ فذكر خيراً . واعتلّ بذكر زوجته ، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده . وتمنيها لقاءها قبل الموت . وإلحاحها عليه في إحضارها . وأنّه أحب إسعافها . ورجا بلوغها أمنيتها منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها ففعل . وأجاز الجارية ، وتوثق منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها . فانقلب عنه . ولما ودّعه قال له لذريق : « إذا قدمتَ علينا . فاستفره لنا من الشّذانقات (٤٥) التي لم تزل تُطرفنا بها ، فأنّها آثر جوارجنا لدينا » . فقال : « أيها الملك ! وحقّ المسيح لئن بقيتُ لأُدخلنّ عليك شُذانقات ما دخل عليك مثلها قط » . عرّض له بالذي أضمره . من السعي في إدخال العرب عليه ، وهو لا يَفْطِن .

ولم يتنهنه يليان ، عندما استقر بسبتة عمله ، أن تهيّأ للمسير نحو موسى ابن نُصَير الأمير . فمضى نحوه بأفريقية ، وكلّمه في غزو الأندلس، ووصف له حسنها وفضلها . وماجمعت من أسباب المنافع . وأنواع المرافق ، وطيب المزارع . وكثرة الثمار . وغزارة المياه وعذوبتها . وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها . ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغناء ، فشوق موسى إلى ما هناك . وأخذ بالحزم إلى ما دعاه إليه يليان (٤٦) .

---

(٤٤) ينير اسم الشهر (Enero) : وهو شهر كانون الثاني (يناير) . اول شهر من أشهر السنة ، ويكون في وسط الشتاء .

(٤٥) الشذانقات : الصقور او الشواهين ، انظر معجم متن اللغة (٣/٢٩٤) .

(٤٦) نفح الطيب (١/٢٥١ ـ ٢٥٣) .

ولكن بعض المؤرخين المحدثين ، وعلى رأسهم قسم من المستشرقين ، يرون أنّ قصة ابنة يليان في بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع ، وقد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين في هذا الرأى (٤٧). ولعلّ هناك ما يسوّغ التّشكيك في هذه القصة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين، والهدف من هذا التشكيك واضح ومعلوم ومفهوم ، ولكن متابعة المؤلفين العرب المسلمين للأجانب في هذا التشكيك في هدفه غير واضح ولا معلوم ولا مفهوم! ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب وبخاصة المستشرقين منهم ، شككوا في وجود شخصية يليان أصلا ، وذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب – كما ذكرنا ذلك قبل قليل – فتابعهم في هذا التّشكيك قسم من من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة . حتى إذا حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصية يليان ، وأثبتوا وجودها فعلاً بشكل قاطع جليّ ، عاد المقلّدون من مؤرخي العرب والمسلمين إلى متابعة الغربيين من جديد ، فكانوا في كلا الحالتين مقلّدين ، ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص .

وقصة ابنة يليان ، هي الأخرى ، تنتظر مَن يحقّق وقوعها من المؤرخين الغربيين ومن المستشرقين ، لتصبح حقيقة لاشك فيها بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير .

---

(٤٧) قارن : Sanvedra. PP. 58 — 59 ، وفجر الأندلس (٥٩ — ٦٠) ومحمود مكي ــ ملحمة آخر ملوك القوط ــ المجلة (٣٠ ــ ٣٥) ــ العدد (٧٤) ــ ١٩٦٣ ؛ ومحمد عبد الله عنان ــ دولة الأندلس (٣٥/١ ــ ٣٧) والفتح والاستقرار العربى والأسلامى فى شمال افريقيا والأندلس (١٦٠) .

ولا أرى أن مثل تلك القصة لا يمكن حدوثها في كل زمان ومكان ، وبخاصة في تلك الأيام ، في ذلك المحيط ، الذي اتّسم بالانحراف فأصبح قاعدةً في القوط بعكس الاستقامة التي أصبحت استثناءً فيهم . كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرضٍ ابنته قسرا ، كما أن ذكرها في حشد من المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيّد وقوعها ، ولا عبرة بالمصادر العربية القليلة التي لم تتطرّق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى ، إذ لو كان مؤلفوها لا يصدّقونها لأبدوا رأيهم فيها ، ولكنهم لم يفعلوا (٤٨) . ومثل هذه القصة تكررّت كثيراً في محيط الواقع ، ولا تزال تتكرر حتى اليوم (٤٩) ، وأكثرنا سمع أمثالها ، فلماذا لا نكذبها ، ونكذّب قصّة ابنة يليان ، لأن مصادرها المعتمدة عربية إسلامية ؟ !

ولست مع الذين يشككون في هذه القصة ، وأراها السبب المباشر لتعاون يليان مع المسلمين . ولكنني لا أراها السبب الرئيس ، بل السبب الرئيس هو هو أنّه كان يتلقى من غيطشة الأمدادات عَدَداً وعُدَداً ، مما سهل عليه الدفاع عن ولايته . فلما حرمه لذريق من تلك الأمدادات بسبب مشاكله الداخلية . استاء من هذا التوقف . وبدأ بالتعاون مع المسلمين على القوط ، خاصة بعد ما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة . وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجا .

ولعلّ مما يعزّز أن تغيرّ وضع يليان : من الدفاع العنيد عن ولاية سبتة ، إلى الاستسلام المفاجيء للمسلمين وتسليم سبتة لهم واندفاعه في معاونته للمسلمين وتعاونه معهم مادياً ومعنوياً على النظام القائم يومها في إسبانيا ، هو هذا الأثر البالغ على نفسيته . بعد علمه بقصة ابنته مع لذريك ، فنسى كلّ شيء إلاّ الانتقام لابنته ممن اقتضها غصبا ، ولنفسه ممن أساء إليه في سمعته وشرفه بين الناس .

(٤٨) البلاذرى (٢٣٠ ــ ٢٣١) برواية الواقدى ، والبيان المغرب (٦/٢) برواية الواقدى و (٤/٢) برواية عريب بن سعد ، وابن الشباط (١٠٥ ــ ١٠٦) برواية عريب بن سعد .

(٤٩) د . على البارودى ــ حدث فى رحلة الخريف (٦٥ ــ ٦٦) ــ الأسكندرية ــ بلا تاريخ .

فتـح الأندلس

١ ـ الموقف العام :

أكمل عمرو بن العاص بمعاونة عُقبة بن نافع الفِهري فتح ليبْيَا كلّها سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٥٠) (٦٤٢ م) . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب : « إنّا قد بلغنا طرابلس ، وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام ، فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها ، فعل » ، فكتب إليه عمر ينهاه ويأمره بالوقوف عند هذا الحدّ ، فعاد إلى مصر مكرها بعد أن استخلف على ليبيا عُقْبَة بن نافع الفِهْرِي ، الذي صار . إليه بعد ذلك فتح المغرب (٥١) .

وتولّى عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح القُرشِي العامِرِي (٥٢) مصر خلفاً لعمرو بن العاص ، ففتح إفريية .

وخلفه معاوية بن حُدَيج السَّكوني (٥٣) ، فأكمل فتح إفريقية . وخلفه عُقبة بن نافع (٥٤) ، ففتح حتى المحيط الأطلسي ، ولكن فتحه القريب من المحيط لم يكن فتحاً مستداما ، واستُشهد عقبة في ميادين الفتح .

وخلف أبو المهاجر دينار (٥٥) عقبة بن نافع ، ففتح أبو المهاجر المغرب الأوسط (الجزائر) .

---

(٥٠) ابن الأثير (٣/٢٥ ـ ٢٦) والعبر (١/٢٦) .
(٥١) البلاذرى (٣١٦) واليعقوبى (٢/١٣٤) .
(٥٢) انظر سيرته المفصّلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٥١ ـ ٧٤) .
(٥٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٥٧ ـ ٨٩) .
(٥٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠ ـ ١٣٦) .
(٥٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/١٣٧ ـ ١٤٩) .

وخلف زهير بن قيس البلَوي(٥٦) ابا المهاجر، فعزّز في الفتح إفريقية، وانتصر على البربر انتصاراً سَوْقَياً، ولكنه استُشهد في ميادين الفتح.

وخلف حَسَّان بن النُّعمان الغساني (٥٧) زهيراً ففتح قَرْطاجَنَة وفاس وانتصر على الروم في معركة سَوْقيّة حاسمة.

وجاء موسى بن نُصَير (٥٨) خلفاً لحسان، فأكمل فتح المغرب الأقصى وفتح طنجة عَنْوَةَ وفتح سبتة صلحاً.

وكان فتح طَنْجة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م)، وفي هذه السنة مات غيطشة وتولى مكانه لُذريق على الأندلس. وكان على سَبْتَة يُلْيان الذي قاوم بنجاح موسى وردّه عن فتح سبتة بمعاونة غيطشة الذي كان يمدّه بكل ما يحتاج إليه للثبات أمام المسلمين الفاتحين. فلما مات غيطشة، لم تصل إلى يليان من خلفه الأمدادات. فلم يبق أمامه من خيار غير الاستسلام للمسلمين الفاتحين. فسلّم سبتة صلحاً لطارق بن زياد والي طنجة لموسى بن نصير.

وكان فتح الأندلس. نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب (٥٩). ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الأسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الأفريقي. واستقرار الفتح فيه بانتشار العرب والأسلام في ربوعه. وبوجود القوة الضاربة بيد العرب المسلمين والبربر المسلمين الفاتحين على البر المغربي.

---

(٥٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/١٥٠ - ١٧٠).

(٥٧) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/١٧٢ - ٢٢٠).

(٥٨) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١ - ٣٠٩).

(٥٩) المسالك والممالك للأصطخري (٣٣).

وبين الأندلس والبر المغربي الأفريقي الذي فتحه المسلمون بحر المجاز ، عرضه ما بين طنجة والبر الأندلسي ثمانية عشر ميلاً ، وهو عرضه أيضاً بين جـزيرة طريف على البـر الأندلسي وسبتة على البـر المغربي الأفريقي ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق . وبحر المجاز هو الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي (٦٠) ، وهذا المجاز هو الذي يفصل بين المسلمين الفاتحين من جهة ، وأهل الأندلس من جهة ثانيـة ، ولكي يحمي المسلمون ما فتحوه في المغرب من أهل الأندلس والقوط الذين يحكمونها ، كان لابد لهم من فتح الأندلس ، لحماية البر الأفريقي في شمالي إفريقيّة ، فقد رأينا طَنْجة وسَبْتَة قبل فتحهما تحت حكم الأندلس ، فقد كان يليان عامل لذريق على سبتة (٦١) ، : « ثم ساروا إلى مدائن على شط البحر ، فيها عمال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها ، وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها علج يسمى : يليان ، قاتله موسى ، فألفاه في نجدة وقوة وعدّة فلم يُطِقْه ، فرجع الى مدينة طنجة ، فأقام بمن معه ، وأخذ بالغارات على ما حوْلهم والتّضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غَيْطَشَة ، فهم يذبّون عن حريمهم ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هلك غيطشة ، فاضطرب حبل أهل الأندلس.... » (٦٢) ، هكذا كانت العلاقة وثيقة للغاية بين ولاية سبتة وطنجة وغيرهما مع مملكة القوط في الأندلس ، وكان التعاون بين الطرفين وثيقاً ، ومنذ أقدم العصور : إذا كان الحكم في الأندلس قوياً ، سيطر على المدن الأفريقية المواجهة لساحل الأندلس ، وإذا كان الحكم فيها ضعيفاً سيطر البر الأفريقي على الأندلس أو على جزء منها. والهدف هو حماية الأندلس بالسيطرة على مدن الساحل الأفريقي ، لتكون الخط الدفاعي الأول عن البر الأندلسي ، وحماية البر الأفريقي من حكّام الأندلس ، بفتح الأندلس كما فعل المسلمون الفاتحون ، فلابد من أن يكون أحد الطرفين مسيطراً على الطرف الثاني .

---

(٦٠) نفح الطيب (١/١٤٥ ــ ١٤٦) .
(٦١) نفح الطيب (١/٢٥١) .
(٦٢) نفح الطيب (١/٢٥٠) .

إنّ الهدف من فتح الأندلس ، هو ترصين الفتح الأسلامي في شمالي إفريقية بعامة وفي ولايتي طنجة وسبتة بخاصة .

أما الهدف الثاني من الفتح ، فهو نشر الأسلام في ربوعها وإعلاء كلمة الله فيها . إنّ الفاتحين حملوا إلى الناس الأسلام بالفتح ، ولم يحملوا الناس بالفتح على الأسلام .

وقد كان الروم قد اتخذوا من جزيرة صقلّية قاعدة أمامية متقدمة لهم ينطلقون منها للتعرض بالساحل الأفريقي المقابل لها ، فأمر موسى بن نُصير بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنّه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، فلم يبق شريف ممن كان معه إلاّ وقد ركب الفُلك . وعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبدالله بن موسى ، وأمّره على رجالها ، وولاه عليهم ، ثم أمره أن يتوجّه إلى صقلّية . وإنما أراد موسى بما أراد من مسيرة في هذه الحملة ، أن يركب أهل الجلد والحماية والنكاية والشرف ، فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف (٦٣) . وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) .

وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥م) ، أغزى موسى ابنه عبدالله جزيرة سَرْدانية (٦٤) . فغنم وعاد سالماً غانما .

وكانت هاتان الغزوتان لحماية الساحل الأفريقي من غزو الروم من قواعدهم البحرية في هاتين الجزيرتين .

---

(٦٣) الامامة والسياسة (٢/٧٠ ــ ٧١) .
(٦٤) النجوم الزاهرة (١/٢١٦) ، وانظر العبر (١/١٠٤) وشذرات الذهب (١/٩٨) والبداية والنهاية (٩/٧٧) .

وبعد أن أنجز موسى بن نُصير استعادة فتح المغرب الأوسط ، وأكمل فتح المغرب الأقصى ، وفتح طنجة ، أصبحت السواحل المغربية المواجهة لبعض جزر البحر الأبيض المتوسط وللأندلس ، معرضة لهجمات الروم ، لغرض إستعادة تلك المناطق المغربية الغنية إلى سيطرتهم من جديد ، ومعرضة لهجمات من القوط الذين يحكمون الأندلس ، لغرض إبعاد المسلمين الفاتحين عن بلادهم ، بطردهم من السواحل المغربية القريبة منهم ، وحماية الأندلس من غزو المسلمين المتوقع لها ، ومحاولة فتحها .

وكان من جزر البحر التي اتخذها الروم والقوط قواعد لهم متقدمة : جزيرتا مَيُورْقَة ومَنُورْقَة ، وهما جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط ، بين صقلية وشبه جزيرة الأندلس (٦٥) .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧م) جهّز موسى ابنه عبد الله ، فافتتح هاتين الجزيرتين (٦٦) ، وغنم ما لايُحصى ، وعاد سالما (٦٧) .

والهدف الأول والأخير ، من تعرّض المسلمين بهذه الجزر ، هو حماية الساحل الأفريقي من هجمات الروم والقوط ، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما يقولون (٦٨) .

وعندما ضعف المسلمون في شمالي إفريقية ، أصبحت تلك الجزر قواعد لأساطيل أعدائهم وحشود قواتهم ، للهجوم على المسلمين ، وأسر نسائهم ورجالهم ، وأخذهم إلى القسطنطينية وغيرها .

---

(٦٥) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) ، وانظر العبر (١٠٤/١) وشذرات الذهب (٩٨/١) والبداية والنهاية (٩٩/٩) .

(٦٦) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٠٥/١) وابن الاثير (٥٤٠/٤) .

(٦٧) ابن الأثير (٥٤٠/٤) .

(٦٨) انظر تفاصيل هذه الفتوح ، في سيرة : عبدالله بن موسى بن نصير ، في كتاب : قادة فتح الأندلس

إنّ فتح الأندلس ، هو الوسيلة الوحيدة لحماية البر الأفريقي المقابل لها ، والذي كان المسلمون قد فتحوه ، وصارعوا الأهوال من سنة اثنتين وعشرين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية ، أي مدة ثمان وستين سنة ، بذلوا خلالها كثيراً من الجهد والنفقات والشهداء ، على رأسهم قائدان : عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس البلوي .

هكذا فتح المسلمون الفاتحون ما فتحوه ، وهكذا حافظوا على ما فتحوه : بالتّعرض والجهاد ، وبفتح جديد يرصّن الفتح القديم .

٢ ـ فتح طريف :

أرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب ـ أغسطس ـ أيلول ـ سبتمبر ٧١٠ م)سرية إستطلاعية إلى جنوبي الأندلس ، ففتح جزيرة طريف والجزيرة الخضراء ، وعاد مع رجاله في رمضان أيضاً سالماً غانما (٦٩) .

٣ ـ فتح طارق بن زياد :

انزل طارق بن زياد قواته في منطقة جبل طارق بوجبتين ، فكوّن المسلمون في تلك المنطقة رأس جسر لقوات المسلمين . وأرسل طارق أحد قادته المرءوسين وهو : عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري ففتح مدينة قرطاجَنّة الجزيرة ومدينة الجزيرة الخضراء (٧٠) . وانتصر طارق على جيش لذريق في معركة وادي لَكّهْ الحاسمة . وفتح طارق بعد هذه المعركة شَذُونَةَ والمَدُور وقَرْمونة وإشبيلِيَة واسْتَجَة ، وأرسل مغيثاً الرومي ففتح قرطُبَة ، وأرسل سرايا ففتحت مالَقَة وإِلْبِيْرة وغرناطة وكورة تُدمِيرْ وأوريونة ومرسية ثم قصد هو طليطلة ففتحها (٧١) .

---

(٦٩) ابن الأثير (٥٦١/٤) .

(٧٠) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوط) ص (٧٠) ـ على عبدالرحمن بن هذيل .

(٧١) انظر تفاصيل هذه الفتوح في سيرة طارق بن زياد التي ترد وشيكا .

٤ ــ الفتح المشترك بين موسى وطارق :

اولاً : عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (حزيران – تموز – يونيو – يوليو – ٧١٢ م) ، ففتح موسى قبل لقاء طارق : شَذُونَة وقَرْمُونَة ورَعْواق وإسْتَجَّة وإشْبِيْلية ومارِدَة ولَقَنْت وطيلطلة . ومن المعروف أن طارقاً سبق له فتح هذه المدن الأندلسية ، فمن المحتمل أنها انتقضت ، فاعاد موسى فتحها من جديد .

ثانيا : وبعد لقاء موسى بطارق ، فتحا معاً بالتعاون بينهما سَرَقُسْطَة وَوَشْقَة ولارِدَة وطَرَّكونَة وبَرْشَلُونَة وجِلِّيْقِيَّة وقشتالة القديمة .

٥ ــ فتح موسى بن نصَير :

ثالثا : وافترق جيش المسلمين إلى قسمين : أحدهما بقيادة طــارق والآخر بقيادة موسى ، ففتح موسى وحده : بلد الوليد وقلعة لُك وخينخون حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ثم عاد أدراجه إلى طليطلة مع طارق في طريقهما إلى دمشق ، حيث استدعاهما الخليفة إلى دمشق .

٦ ــ فتح مغيث الرومي :

بعد أن فتح طارق مدينة إسْتِجَّة ، بعث سرايا من جنده إلى عدة جهات فبعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي لفتح مدينة قُرْطُبة . فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة .

٧ ــ فتح عبدالعزيز بن موسى بن نصَير :

وجه موسى بن نصير ابنيه عبدالعزيز وعبدالأعلى إلى جنوبي وجنوبي شرقي الأندلس ، وكان هذا بعد استعادة فتح إشْبيلية ، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز فتح مالَقَة وإِلِبِيْرَة من جديد ، ومن الواضح أنّ طارقاً سبق له فتحهما ؛ فيبدو أنهما انتقضتا ، فاستعاد فتحهما عبد العزيز وأخوه من جديد .

ثم توجّه عبد العزيز إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، فالتقى بالقرب من أُوْرِيُوْلة بالدوق تُدْمِيرْ حاكم هذه المقاطعة . فصالحه على مدن المقاطعة كلها وهي : أُوْرِيُوْلة وبَلانَة ولَقَنْت ومُوْلَة وبَسْقَرَة وإِلُة ولُوْرَقَة . فاستعاد المسلمون فتح مدن هذه المقاطعة صلحاً بموجب معاهده (٧٢) .

وفي الوقت الذي كان موسى وطارق يقومان بالفتح في شمالي الأندلس ، كان عبدالعزيز يقوم بفتح وسط البرتغال ، فقد فتح يَابُرَة وشَنْتَرين وقَلْمُرِيَّة . وقد فتح المدينتين الأخيرتين صلحا .

٨ ـ فتح عبد الأعلى بن موسى بن نصير :

وجّه موسى بن نصير ولديه عبدالأعلى وعبدالعزيز إلى جنوبي وجنوبي شرقي الأندلس . وكان هذا بعد استعادة فتح إشْبيلية ، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز فتح مالَقَة وإلْبِيْرة من جديد ، ومن الواضح أنّ طارقاً سبق له فتح هاتين المدينتين لأول مرة . والظاهر أنهما انتقضتا ، فاستعاد عبدالأعلى وعبدالعزيز فتحهما من جديد .

٩ ـ فتح عبدالله بن موسى بن نصير :

في سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) وجّه موسى بن نصير ابنه عبدالله لفتح جزيرتي مَيُوْرَقَة ومَنُوْرَقة . فاستطاع فتح هاتين الجزيرتين . وعاد إلى قواعده في إفريقية سالماً غانما (٧٣) .

١٠ . فتح السمح بن مالك الخولاني : فاتح شطر جنوبي فرنسة ، وبخاصة مدينة أربونة .

---

(٧٢) انظر نص المعاهدة في سيرة : عبدالعزيز بن موسى بن نصير في كتاب : قادة فتح الاندلس .

(٧٣) انظر التفاصيل في سيرة عبدالله بن موسى بن نصير في كتاب : قادة فتح الأندلس .

القـــادة وفتـــوحاتهم

التسلسل	القائد	فتوحاته	التـــاريخ هـ	التـــاريخ م	الملحوظات
١	طريف بن مالك	١ ـ جزيرة طريف ٢ ـ الجزيرة الخضراء	٩١ رمضان	٧١٠ آب ـ أيلول أغسطس سبتمبر	
٢	طارق بن زياد	١ ـ جبل طارق ٢ ـ قرطاجنة الجزيرة ٣ ـ بلدة الجزيرة الاخضراء ١ ـ شَذُونَة ٥ ـ قَرْمُونَة ٦ ـ اشبيليَة ٧ ـ استَجَة ٨ ـ قرْطبَة ٩ ـ مالَقَة ١٠ ـ الِبيرَة ١١ ـ غَرناطة	٩٢ رمضان	٧١١ م	٢ و ٣ فتحهما عبد الرحمن بن أبى عامر المعافرى ٨ . فتحها مغيث الرومى ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فتحها قادة سرايا طارق .

		١٢ ـ تدمير ١٣ أوريولة ١٤ ـ مرسية ١٥ طليطلة		
	طارق وموسى في فتوحهما المشتركة	١ ـ سَرَقُسطَة ٢ ـ وشقة ٣ ـ لاردة ٤ ـ طَرَّكُونَة ٥ ـ بَرْشلونَة ٦ ـ جِلّيقيّة ٧ ـ قَشْتَالَة القديمة	٩٥	
	فتح طارق وحده	١ ـ امايه ٢ ـ استرقة ٣ ـ ليون	٩٥	
٣	مغيث الرومي	قرطبة	٩٢	٧١١
٤	السمح بن مالك الخولاني	شطر جنوبي فرنسة أربونة	١٠٠	

٥	موسى بن نصير	١ ـ شَذُونَة			
		٢ ـ اشبيلية			
		٣ ـ قَرْمُونَة			
	قبل لقائه بطارق	٤ ـ رَعْوَاق			
	(١)	٥ ـ مارِدَة			
		٦ ـ لَقَنْت			
		٧ ـ استجة			
		٨ ـ طليطلة			
	طارق وموسى في فتحهما المشترك	١ ـ سَرَقُسْطَة ٢ ـ وَشْقَة ٣ ـ لارِدَة ٤ ـ طَرَّكُونَة ٥ ـ بَرْشَلُونَة ٦ ـ جلِيَقِيَّة ٧ ـ قَشْتَالَة القديمة	٩٥	٧١٤	
	فتح موسى وحده	١ ـ بلد الوليد ٢ ـ قلعة لك ٣ ـ خيخون ٤ ـ ساحل المحيط	٩٥	٧١٤	
٦	فتح عبدالعزيز بن موسى بن نصير	١ ـ فتح اشبيلية (ثانية)	٩٤	٧١٣	فتح ٢ و ٣ بمعاونة أخيه عبد الأعلى بن موسى بن نصير) المدن من ٤ حتى ١٠ هى ولاية تدمير

		٢ ـ مالقَة			التى فتحها عبد العزيز وصالح عليها تدمير
		٣ ـ البِيرَة			
		٤ ـ أوريُولة			
		٥ ـ بَلاَنَة			
		٦ ـ لقَنت			
		٧ ـ مولة			
		٨ ـ بسقرة			
		٩ ـ الة			
		١٠ ـ لُورْقَة			
		١١ ـ اشبيلية			
		١٢ ـ مارِدَة			افتح ١٤ و ١٥ صلحاً
		١٣ ـ يابُرَة			
		١٤ ـ شَنتَرِين			
		١٥ ـ قلُمرِيَة			
٧	عبد الأعلى بن موسى بن نصير	١ ـ مالقَة ٢ ـ البِيرَة	٩٤ـ٩٥	٧١٣ـ٧١٤	فتح المدينتين بالتعاون مع اخيه عبد العزيز .
٨	عبدالله بن موسى بن نصير	١ ـ ميورقة ٢ ـ منورقة	٨٩	٧٠٧	جزيرتان شرقى الأندلس .

عبرة الفتح

١ - التوقيت :

كان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، يفكّر في إقفال المسلمين من الأندلس . إذ خشِيَ تغلّب العدو عليهم (٧٤) ، ولأنقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين (٧٥) . قيل له : « إنّ المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا » . فعدل عن مشروعه ، « قالوا : وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فأنّ مصيرهم مع الكفار إلى بوار ، إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته » (٧٦) . ويبدو أن هذه الأُمنية : « وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل » ، سُجِّلت بعد حدوث ما حدث في الأندلس ، أي بعد أن خسر المسلمون الأندلس ، وخسروا كثيراً من أرواحهم وأملاكهم وكثيراً مما هو أغلى من الأرواح والأملاك .

لقد عبر طارق بن زياد إلى الأندلس فاتحاً في اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان - أبريل - ٧١١ م) ، واستقرّ حكم المسلمين في الأندلس ثمانية قرون ، منذ فَتْحِها بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر في تلك السنة . حتى سقوط غَرْنَاطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة الهجرية (١٤٩٢ م) .

وقد مرَت الأندلس . خلال تلك القرون بعدّة عهود . تَقَلّبت خلالها بين الضعف والقوة ، وهذه العهود بأيجاز هي :

أ . عهد الفتح : الذي استمّر نحو أربع سنين : ٩٢ - ٩٥ هـ (٧١١م - ٧١٤ م) .

ب . عهد الولاة : من سنة ٩٥ هـ إلى ١٣٨ هـ (٧١٤ م - ٧٥٥ م) ، ويعتبر قسم من المؤرخين عهد الفَتح داخلاً في هذا العهد الذي ينتهي بقدوم

(٧٤) افتتاح الأندلس (١٢) .
(٧٥) أخبار مجموعة (٢٣) وفتح الأندلس (٢٤) .
(٧٦) أخبار مجموعة (٢٣) ونفح الطيب (١٥/٣) .

عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، وقد حكم الأندلس في هذا العهد الذي استمر نحو اثنتين وأربعين سنة ، عشرون والياً تقريباً ، كانوا تابعين للخلافة في دمشق أو لولاية الشمال الأفريقي : (إفريقية والمغرب) .

ج . عهد الأمارة : من سنة ١٣٨ هـ — ٣١٦ هـ (٧٥٥ م — ٩٢٩ م) .
ويبدأ من قدوم عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس ، حتى إعلان الخلافة من قبل عبدالرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وقد أسس عبدالرحمن الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية ، استمرت مائة وثمانٍ وسبعين سنة .

د . عهد الخلافة : من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٠٠ هـ (٩٢٩ م — ١٠٠٩)، ويبدأ منذ إعلان الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م)، أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . فكان عمر الخلافة نحو قرن من الزمان .

هـ . عهد الطوائف : من سنة ٤٠٠ هـ — ٤٨٤ هـ (١٠٠٩ م — ١٠٩١م). وهو عهد دول أو ملوك الطوائف ، التي سبقت أعوام الفوضى ، وقد استمر هذا العهد نحو ثلاثة أرباع القرن ، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين .

و . عهد المرابطين والموحدين : من سنة ٤٨٤ هـ — ٦٢٠ هـ (١٠٩١م — ١٢٢٣ م) حيث دخلت الأندلس اولاً في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٢٠ هـ (١١٣٤ م) أي أقل من نصف قرن ، وبعد مدة انضوت الأندلس لحكم الموحدين قرابة قرن من الزمان ، ينتهي في حوالي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م — ١٤٩٢ م) . ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين (٧٧) .

---

(٧٧) التاريخ الأندلس من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة (٣٩ — ٤٠) .

ز . مملكة غَرناطة : من سنة ٦٢٠ هـ ـ ٨٩٧ هـ (١٢٢٣ ـ ١٤٩٢ م)
حيث قامت دولة بني الأحمر واستمرت ما يزيد على قرنين ونصف القرن ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ويمثل سقوطها نهاية الحكم الأسلامي للأندلس وذهاب السلطان السياسي منها . وبقي ملايين من المسلمين . ولكنهم تحملوا عشرات السنوات الكثير من الاضطهاد وعمليات الأفناء التي أتت عليهم في النهاية قتلاً وتشريداً وإذابة . وكادت تأتي على كل ماخلفه المسلمون بأجناسهم من إنتاج حضاري رفيع شمل مختلف الميادين (٧٨) .

٢ ـ اسباب النصر :

وكان تعداد جيش طارق بن زياد الذي عبر على رأسه من الشمال الأفريقي إلى الأندلس فاتحاً هو سبعة آلاف مجاهد ، وكان تعداد جيشه في المعركة الحاسمة التي خاضها ، فانتصر على القوط الغربيين وقتل ملك إسبانيا القوطي لذريق . اثنى عشر الف مجاهد ، تكبدوا في معركتهم الحاسمة ثلاثة آلاف شهيد(٧٩). أي ربع مجموعة القوة الأسلامية الذين قدموا فاتحين .

واندفاع طارق بهذا العدد القليل من المجاهدين لفتح بلاد واسعة بالتغلب على دولة القوط القائمة لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية التي تخلو من الأخطار والمعضلات الجسام ، وانتصار طارق على القوط وفتح الأندلس ليس لأن القوط كانوا ضعفاء في جيشهم وقيادتهم ، كما يحاول أن يزعم المستشرقون ويتابعهم عليها المستغربون ، فالعكس هو الصحيح ، لأن تقاليد القوط العسكرية وشجاعتهم معروفة حتى اليوم ، كما أنّ لذريق ملك الأندلس كان من أبرز قادتهم وأكثرهم كفاية كما يقرر ذلك مؤرخو الأسبان المحدثون . حتى جعلوا منه بطلاً قوميا . كما أن ضعف أمة من الأمم لا يتيح الفرصة لغيرها

(٧٨) تاريخ الأندلس من الفتح الأسلامي حتى سقوط غرناطة (٤٠) .
(٧٩) استفتاح الأندلس (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وتاريخ الأندلس (٤٧) ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

أن تكون قوية متماسكة بدون مسوّغ ، وما انتصر طارق ومن معه من المسلمين الفاتحين إلاّ لأنهم كانوا مجاهدين صادقين ، قاتلوا قتال أهل العقيدة الراسخة التي جعلت الجهاد فرضاً وجعلت الشهيد حيّاً عند الله يرزق في الجنّة في درجات رفيعة من درجاتها ، كما أن طارقاً قائداً والمسلمين المجاهدين جنوداً ، كانوا يشعرون أنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، بل هم في ضمان الأسلام ديناً والمسلمين أمة لا يمكن أن يتخلى عنهم المسلمون أبداً ، فهم في ضمان المسلمين كافة وفي رعاية الله . لذلك كان إقدامهم فذاً عجيبا ، وانتصاراتهم مذهلة مدهشة . بكل المقاييس العسكرية المعروفة .

هذا هو سبب انتصار طارق ورجاله : انتصروا بالأسلام والمسلمين ، فما ينبغي أن ننكر هذا السبب في دراستنا ، مجاملة لأعداء العرب والمسلمين ، أو خشية من أحد . لأن الحق أحق أن يُتبع وأن يُدون وأن يصرّح به وأن يُدافع عنه .

ومن المعلوم . أن الجيش الذي يقاتل في ساحة من ساحات العمليات ، وهو يعلم علم اليقين . أن مصيره جماعات وأفراداً ، لا يهم ذوي قرباهم من المسلمين حسب ، بل يهمّ المسلمين كافة في أرجاء الوطن الأسلامي ، من الخليفة المسؤول الأول في المسلمين ، إلى أصغر فرد من أفراد المسلمين ، وأن مصيره لا يغيب عن أذهان المسلمين كافةً ، كما لا يغيب عن أذهان أهليهم الأقربين . هذا الجيش الذي يقاتل بضمان المسلمين جميعاً ، ليس كالجيش الذي يقاتل بدون ضمان ولا تضامن . فالأول يقاتل بمعنويات عالية جداً تتناسب مع ضمان المسلمين له وتضامنهم معه . والثاني يقاتل بمعنويات منهارة ، لأن مصيره ليس موضع اهتمام أحد من المسؤولين وغير المسؤولين . كالشجرة بدون جذور . أو كالبناء بدون أسُس ، تنهار الشجرة وينهار البناء اليوم أو غدا . ولا يقاوم العواصف والهزات .

وكان للفتوحات الأسلامية بدون استثناء حافزان لا ثالث لهما : الأول هو الحافز الديني ، المتمثل بالجهاد والدعوة إلى الله ، فقد كانت الفتوحات فتوحات عقيدة . أما الحافز الثاني فهو حافز عسكري ، وهو الدفاع عن البلاد المفتوحة ، بفتح البلاد التي يكمن فيها أي خطر على مصير تلك البلاد ، فكان فتح الأندلس هو لحماية شمالي إفريقية من خطر يتهددها من الأندلس في الحاضر أو المستقبل ، حتى لا تصبح قاعدة للعدو ينطلق منها لتهديد الشمال الأفريقي . وقد ثبتت سَبْتَة أمام المسلمين بمعاونة من ملك الأندلس في حينه كما هو معروف (٨٠) .

أما ما يردده المستشرقون ويصدّقه المستغربون من أن : إسبانيا في السنوات الأخيرة التي سبقت الفتح العربي ، عانت من الفوضى والارتباك في الدولة القوطيّة ، نتيجة اغتصاب العرش من قبل لذريق ، حيث واجه وضعاً داخلياً سيئاً للغاية ، فقد كانت الدولة بحاجة ماسة إلى الأموال ، للقضاء على الفتن وحركات التمرد المعادية ، لاسيما في منطقة الباسك . هذا فقد استولى لذريق على خزائن أسلافه في كنيستي سان بيدرو (San Pedro) وسان بابلو (San Pablo) في طليطلة ، مما سبب استياء رجال الدين . ويمكن القول بشكل عام ، إنّ إسبانيا ، كانت تعاني من مشاكل سياسية واجتماعية كبيرة قُبيل مجيء العرب إليها ، وإن جيشها لم يكن بحالة تسمح له بالوقوف أمام الجيش العربي الأسلامي » (٨١) . ومثل هذه التخرصيات لا يصدقها أحد ، لأن لذريق كان من أقوى قادة القوط وأقدرهم ، وقد قضى على التخلف والانحلال باستيلائه على السلطة الضعيفة . كما أن ضعف دولة من الدول ، لا تتيح الفرصة

---

(٨٠) سيرد تفصيل ذلك في سيرة طارق بن زياد ، كما ورد في سيرة موسى بن نصير ، انظر قادة فتح المغرب (٢٣٦/١) .

(٨١) E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion - de los Arobes en Espana, Madrid, 1892, PP. 40 - 43.

لغيرها من الدول أن تكون قوية وقادرة على الفتح . وما كان العرب ولا غيرهم من المسلمين كالبربر يطمعون بحماية أنفسهم من القوط قبل أن يصبح البربر مسلمين ، فأصبحوا قوة قادرة بالأسلام وبروح الجهاد الذي بعثه الأسلام في نفوسهم . فأذا كان المستشرقون بروحهم الصليبية والصهيونية يهدفون إلى التقليل من شأن أثر الأسلام في الفتوح والنصر ، لأسباب لا يجهلها أحد ، فما ينبغي للعربي المسلم أن يردد مزاعم الصليبيين والصهاينة ، لأنها مزاعم مغرضة أولاً وخاطئة ثانياً وغير واقعية ثالثاً ، ولا تستقيم مع مناهج البحث العلمي رابعاً وأخيرا ، والعربي المسلم أحرى بالدفاع عن أمته بالحق ، ولا نريد من أحد أن يدافع عن أمته بغير الحق .

الفهرس





الجزء الرابع ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ ـ كانون الاول ١٩٨٧ م

الاندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفي ايامه الاولى

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م

الاندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفى ايامه الاولى

اللواء الركن محمود شيت خطاب

« عضو المجمع »

القسم الثالث
١ ـ فى اوروبة وإفريقيّة

حضارة العرب والمسلمين فى الأندلس

١ ـ الجذور :

لاشك في أن كثيراً من الغربيين ، يحملهم التعصب الأعمى على إخفاء محاسن حضارة العرب والمسلمين في الأندلس ولاسيما الحضارة الكبرى التي أوقدوا مصابيحها لأول مرة من اوروبا . ولم يقتصروا على ذلك ، بل أخذوا يختلقون سيئات وينسبونها إلى العرب سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون . وسنلخص كتاب : (حضارة العرب في الاندلس) للعالم الشهير والمؤلف الكبير : جوزيف ماك كيب Joseph maccabe الذي ألف (٢٥٠) كتاباً وألقى ألوفاً من المحاضرات ، وسافر إلى شتى أنحاء العالم، وأتقن عشر لغات ، حتى جعله الامريكيون أكبر عالم في الدنيا ، لأن المؤلف مسيحي وعالم ، فلايمكن أن يتهم بدينه ولا علمه .

ذكر المؤلف المنصف : أنّ القرون الطوال التي اتُسمت بها هذه المدينة المحمديّة من البرتغال غرباً والى السند شرقاً ، قد وصلت في القرن الرابع عشر عند العرب إلى المستوى الذي كانت قد وصلته الحضارة اليونانية والرومانية إن لم نقل إنها فاقتها . فقد ارتقى النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة

إلى أعلى درجات الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون ، والأحسان إلى البؤساء ، وترقية الفنون والتهذيب ، ولعله إلى هذه الأيام ، لم لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا ارغد عيشاً ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من عرب الأندلس . ولا مراء في أن مؤرخينا – يقصد مؤرخي الغرب – لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب اربعة : اولها ، إنّ حال اسبانيا وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، هي نقيض لحال اوروبا النصرانية والقدرة إلى حد لا يتصور . والثاني ، مع أن العرب ، ابتدأ رقيهم من دركة متوحشة مثل القوط والفنداليين ، فقد شجعهم بقايا مدنية اليونان والفرس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين ، بينما سكان اوروبا تحت سلطات (البابوات) مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدنى بكثير من مستوى العرب المسلمين . والثالث ، أن هؤلاء العرب الذين شيدوا هذه الحضارة الزاهرة كانوا من المتسامحين في الدين ولم يكونوا من المتعصبين . والرابع ، أن حضارة أولئك العرب ، كانت مقدمة للاجديد والتقدم الذي نحن فيه اليوم . إلاّ أنني أختصر القول هنا ، فأقول : إن هذه الحضارة هدفها المتعصبون من نصارى إسبانيا في الأندلس ، ثم يقول : لقد مضى ألف سنة إلاّ قليلاً ، على الناس ، بعد اندراس مدنية العرب في الأندلس قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته ، وبعبارة أخرى ، كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيّمة ، فلما مضوا وأُحرق أكثر تصانيفهم ، بقى الناس ألف سنة تقريباً ، لا يجدون كتاباً يستحق أن يُقرأ ، وقد قال استوارت في كتابه : (تاريخ الآداب العربية) : كان في الأندلس ألفا ألف مصنف ، ولم يصلنا من كتبهم إلاّ شيء قليل .

وقال المؤلّف في كتابه : (الأخلاق) : كان في المملكة الأسلامية طوائف عشرين ديناً منقسمين الى مائة مذهب ، وكلّهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح . والخراج القليل الذي كان يُفرض على غير المسلمين ، كان في الحقيقة مدداً لبيت المال ، ولم يكن يُقصد به التّعالي عليهم وإهانتهم . والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يُعاملون المنحرفين من الدين في اوروبا يحقّ لهم أن يفخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض .

وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين بمصر : وبعد بضع سنوات من فتح المسلمين للاسكندرية ، ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة ، فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة ، ولكن حتى مؤرخو النصارى الحاضرون ، يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريباً وانتقاماً . وإنما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة ، أما الرواية القائلة بأن العرب وجدو من بقايا خزانة الاسكندرية كتباً كثيرة ، فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر ، فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة . ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلا بعد مضي ستة قرون من فتح مصر . وقد بحث بتلـــر (A.J. Butler) بحثاً دقيقاً في هذه المسألة ، في كتابه : فتح العـرب لمصر ، وختم كلامه بأنّ هذه الرواية أسطورة حقيرة ، وليس لها أساس تاريخي البتّة . وذكر استانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب : تاريخ مصـــر ، تأليف فلينـــدرس بتـــري (Feinders Petrie) : ولسيس هناك بيِّنة على أنه كانت بالأسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان ، والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها منها تدريجاً في مدة طويلة قبل ذلك بزمان .

وقال المؤلف ماك كيب : لا أعتقد أن الرق كان من سيئات العرب ، لأن عبيدهم كانوا أسعد حـّظاً من معظم سكان اوروبا . وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية او تسعة قرون تذم الرق ، ثم باركت على استرقاق السود ، فكيف تنظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة ؟

وقال المؤلف : ولست الآن بصدد التحقيق في آداب العرب في النكاح ، ولكني من حيث أنا مؤرخ في الأخلاق ، أستنكر ما يقوله بعض مَنْ لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين ، فذكروا ، أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة ، وأنهم كانوا فاسدين هادمين لصلاح المجتمع ، فأن الحقائق التاريخية تكذب هذا القول ، وكل كتاب مغبر في الحضارة العربية ، بل حتى الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى المطبوع في كامبرج ، تشهد أن العرب كانوا يعطون الحياة حقها ، وكانوا خير أمة أُخرجت للتناس ، من أوّل التاريخ إلى الآن . واذ قد عرفت أخلاق العرب واعتدالهم في أمور النكاح ، فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة ، فضلاً عن غيرها من الأوربيين في ذلك الزمان : إنّ عمل قوم لوط كان شائعاً في ذلك الزمان في جميع أنحاء اوروبة ، وفي اواسط القرن الحادي عشر ، رأي الكردينال بطرس داميان أن اللواط شائع بين القسيسين والرهبان في ايطالية ، وبلغ الأمر في أنّه ألف كتاباً في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه ، يستغيث به أن يعاقب كل راهب او قسيس ، يثبت عليه اللواط ، يحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في غرفة مظلمة . ولما وصل كتابه إلى البابا ، تقبله وأظهر الارتياح به . إلاّ أنه رأى الا يبلغ العقاب بأولئك الفساق إلى الحد الذي اقترحه الكردنيال المذكور . ولكن بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة ، فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت . واسم كتاب داميان الذي اهداه إلى البابا : (عمورية) وهو اسم قرية قوم لوط . وفي كتاب داميان ما هو أدهى وأمرّ ، مما يدل على تمام الهمجية وهو الزنا بالمحارم ، وأنه كان شائقاً هناك أيضا .

قال المؤلف : لقد أطلقت لفظ : (العصور المظلمة) كسائر المؤلفين في كتابي هذا ، على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطاً على العمـــوم ، وخصوصاً القرن العاشر المسيحي . تنصرت الممالك الاوربية قبل ذلك بأربعة قرون او بخمسة قرون او ستة قرون تقريباً مضت من يوم تغلبّ (البابوات) والأساقفة على إرادة الملوك ، وحملوهم على إبادة كل مصادر الألهام يخالفهم أو يباريهم ، فأغلقوا المدارس والمعابد . وقضوا على العلم والأدب ، وإذا استثنينا بعض المواضع في اوروبة كالبندقية ، إذ كان فيها بقية تافهة إصلاحية من علم اليونان تخفف من شرّهم وهمجيتهم ، فأن اوروبا كلها كانت في تباب وخراب اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً . ومن ذلك الزمان أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهيميّة ، ولم يكونوا في ذلك الزمان يسترون حتى بجلباب النفاق . ولو أن غنياً من أصحاب الملايين من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان ، لقدر أن يشتري مملكة بأسرها ، وكان تسعة وتسعون بالمائة خدماً يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد ، ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة بالألف من النساء ، يقدر أن يقرأ . وكان الضعيف مضطهداً مقهوراً مسحوقاً تحت الأقدام مغموساً في الطين والدم ، بل حتى القوي كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام والنجوم ذوات الأذناب في السماء وجينود العفاريت الهائاة في الهواء.

كذلك إن اردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية ، فادرس القرن العاشر ، فلا زخارف أقوال الواعظين ، ولا كذب المعتذرين ، ولا الأذعان السياسي من المؤرخين ، بقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظيم تبعة الكنيسة ولاسيما البابوية ، في ذلك الزمان ، الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها . وإنّه لفصل من أشد فصول البشرية شقاء وحزناً من الفصول التي استشهدت الانسانية . لقد حطم بولس من ناحية وأوغسطين من ناحية أخرى مدنية الأنسان، فهل هذا هو الذي سميناه — بعيدين عن اتباع الهوى — مدنية الله ؟

لقد فاز في جميع بلاد أروبا إلاّ زاوية واحد ، ألا وهي جزيرة (إيبريا) الاندلس التي نسميها اليوم إسبانيا والبرتغال ، فقد أُزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن ، وحكمها المسلمون ، أجل قد لمعت رايات العرب المطرّزة المحمولة مع متن القرآن ظافرة تجتاح جبال (البرانس) وتتألّف في شمس جنوبي فرنسة ، وصارت الممالك النطرنية مهدّدة، والمدرسون الأغمار لى بقول المؤلف النطرني – في مدارسنا العالية ، لايزلون يقولون للأطفال الأغرار ، ناقلين من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة ، ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر جين لقى العرب في سهول فرنسة وصدّهم عنها وحفظ العالم من المدنية .

إذ لايوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة ، يجرأ أن يقول لتلامذته ما يعرفه كلّ مؤرّخ . أنّ العرب أقاموا حضارة من أعظم الحضارات العالمية ، وأنّ شارل مارتل وجنوده كانوا لصوصاً متوحشين برابرة ، وأنّ عرب الأندلس لو نجحوا في فتح أوربا وأقاموا فيها قرنين وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا بأسبانيا ،لكنّا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم،ولايستطيع عاد أن يعدّ مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان الذي سببها ذلك الظفر المبين ناله شارل مارتل في سهول فرنسة الجنوبية ، وربما تتعجب إذا قيل لك : إنه يجب أن يضمّ درس حضارة العرب في الأندلس إلى دروس الدين ونشوء الأنسان وارتقائه . وسينقضى عجبل سريعاً جداً متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين : الأول . إنه من أبطل الباطل ، أن يقال في أى بقعة من بقاع أروبا . إنها لم تقدر أن تعود إلى المدينة بسرعة ، لأن الدول الرومانية قد سحقها الغزاة البرابرة من أهل الشمال تحت أقدامهم . والثاني إنّه البعث الحقيقي للحضارة الأوروبية لاعلاقة له بدين النصرانية ، بل هو عدوّها المبين .

قبل سنوات وقفت على جسر قرطبة ، وفكرت في ذلك المنظر المحزن للهيكل القطمي لقرطبة التي أصبحت قرية في سكانها البائسين وشوارعها الضيقة القذرة ونهرها المقذر . خكانها أقل من مائة ألف نفس ، في بيوط بالية وفقر شديد ، بينما كانت قبل ألف سنة أعظم مدينة في الأرض ، يقارب سكانها مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة ، وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأروبية النطرانية مراراً ، مع أميال معمورة بقصور المرمر الفخيمة، تلمع بين الحدائق البهيجة ، ممتدة أمام ذلك النهر . وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كلّ ناحية من نواحي الدنيا ، حيث كان العلم والفن يقدرّان حقّ قدرهما .

كان الرومان قدمدّنوا إسبانيا وبريطانيا وفرنسة وجنوبي ألمانيا وإيطاليا، أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي ، شهوانيين ، فجّاراً ، ماديين ، جعلوا من أبنائها الأولين أمةّ مهذبة أرقى بلا حدود من أيّ أمّة من أهل الممالك النطرانية بعد ألف سنة ، وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبّدة وتعبر على قناطرهم في إسبانيا ، وهذه المدنينة الرومانية الأسبانية ، قد سحقتها القبائل التيوتونيّة تحت أقدامها ، مثلما سحقت فرنسة وأشد مما صغت بأيطاليا لقد زلزلها الفنداليون المتوحشون ، وحكمها القوط الغربيون وسكنوها وكما يقول اسكوت (ميخائيل سكوت)(Michal skot) : « لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية ، وأنّ تقوى القسيسين الروحية ، قد قضى عليها تعطشهم الشديد إلى التسلّط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها (الفصل الأول ص ٣٦٣) » . واسـانلي لين بول (Stanly Lane Poole) لم يجد بدأ أن يعترف بمثل ذلك في كتابه : العرب في الأندلس (ص ٧٠)فقال: «لاشك في أنّ القوط كانوا متعبدين، إلاّ أنهم كانوا يرون أنّ عبادتهم تكفر ذنوبهم، وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الرومان الذين سبقوهم . وحتى القسيسون الذين كانوا يعظون ويحضون الناس على الأخوّة المسيحيّة – حين صـاروا أغنياء وملكوا الضياع ، اتبعوا السياسة المأثورة في الجور ، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة ، كما كان يعمل أشراف الرومان قبلهم» .

وهذه صورة إسبانيا في القرنين السابع والثامن . ولما استوطن القوط الغربيون إسبانيا في القرن الخامس ، أظهروا على الفور ، أنّ قوة التيوتونين البربرية إذا تزوجت بثقافة الرومان ، تتولد منهما مدنية جديدة ، وذلك يبطل الرواية المزعومة : أنّ النصرانية لأجل أن تمدن البرابرة يلزمها زمان طويل . والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية ، وهي أنّ النصرانية كانت قوّة ممدّنة ، هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعاً سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوربا خلال قرنين .

والآن ، دعنا ننظر من أين جاءت القوة الممدّنة حقيقة ، كانت بلاد العرب بكراً لم تفتح ولم تمدن قط ، حتى أواخر القرن السابع ، فجاء محمد عليه الصلاة والسلام ، فأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينيه الجديد. فيعث في العرب نشاطاً عجيباً ، فانطلقوا يفتحون البلدان ويدخلون الناس في دينهم في ارجاء العالم . وفي وقت قصير جداً ، استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية ، ولم يمض عليهم زمن طويل ، حتى أنشأوا مدنية عربية إسلامية . وكما قال سكوت : « لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم الأمويين والعباسيين إلاّ أقلّ من مائة سنة . وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل التيونونيين ، ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة صاروا متمدنين تماما خلال قرن واحد . ولكن ينبغي لنا اولا ان نعلم . كيف صار هؤلاء العرب الحمديون او الشرقيون (موراً) ودخلوا اوروبا ، بعد ما فتح العرب مصر ، كانوا لايزالون متعطشين إلى الفتح ، فولوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب ، وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبئوا بها ، ولكن البحر أفزعهم ، وقد سمعوا أن وراء الصحراء ارضا خصبةزكية التربة : تونس والجزائر ومراكش ، التي عمرها القرطاجيون والرومان وجعلوها غنية . ولذلك وجه أحد القواد العظام في (٢٠٠٠٠) من الخيل والركاب سنة ٦٤٦ م وتوغلوا في مجاهل الصحارى . فاجتازوا مسافة الف ميل من الارض على شاطيء إفريقية الشمالية ، وفي نحو نصف قرن ، حكم العرب الشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض كله وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى اراضي الشاطيء الشمالي الغنية .

واستوطن بعضهم مع المور – البربر السود – وكما يزعمون ، والحق أن البربر بيض بياضاً قاتما وليسوا سوداً . من الشاطيء المقابل لجبل طارق ، ولاشك أنهم تزوجوا منهم ، فلذلك صاروا يعرفون عند الأزوروبيين بالمور والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطيء الاوروبي حركت رغبتهم ، وكانت بيد قائد يوناني يدعى يوليان ، تحت حكم . امبراطور الرومان إسمياً . وفي سنة ٧٥٩ م أو ٧١٠ م صار يوليان حليفاً للمور . ويحكى أنه ارسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدى الملك على عفافها ، فاستشاط لها يوليان ، وعزم على الانتقام ، فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطيء الاوروبي وفتح إسبانيا ، ووصف له الكنوز والأموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكينستهم وصفاً شائقاً ، وأوضح له أن بلاد اسبانيا في انحطاط فلا يحتاج فتحها إلا إلى قليل من الجنود والعتاد .

وفي سنة ٧١٠ م بعد بعثة استطلاعية ، جهز العرب قائداً بربرياً ومعه (٧٠٠٠) جندي ، ثم أمدده بخمسة آلاف فارس من البربر ، وقبل انتهاء سنة ٧١١ م ، تم عرب تقريباً فتح شبه جزيرة أسبانيا ، وانحصر بقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين في بقعة جبلية صغيرة على خليخ بسكاي ، وصعد العرب على جبال البرانس ، وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان فرنسة ، الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين ، وبمرور الزمن ، فتحوا جنوبي فرنسة . ولما وصلت أخبار هذه الفتوح و ما فيها من الغنائم والأراضي الخصيبة إلى الشرق ، جذبت خلقاً كثيراً من العرب والبربر للالتحاق بأخوانهم في الغرب . وبعث الخليفة من دمشق والياً استعمله على بلاد الأندلس ، ومعه اربعمائة من أشراف العرب ، فتجدد في العرب التعطش إلى الأزدياد من الفتح . وفي وقت من الأوقات ، كان في بلاد فرنسة مائة الف جندي من العرب ، يجوسون خلال ديارها ويدوّخون أهلها . وفي ذ ك الوقت ، كانوا قد بلغوا درجة عالية من التمدن والرقي . وقد رحّب

أهل جنوبي فرنسة بهؤلاء الفاتحين ، ورأوا فيهم رُوماً جُدداً بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتولىشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب الفرنج والجرمانيين الشماليين لمتوحشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب وعدم تقدمهم في وروبا ، الذي يسمى في أكثر المدارس الغربية أنصاراً لتمدن والنصر نية ، وهذه تسمية خاطئة مائة بالمائة ، وبأي شيء عاد إلى وروبا من وبال ، بل لأجدر بنا ن ننظر في الخطة التي سار العرب عليها في إسبانيا نفسها ، حتى اوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية اوربا بالنسبة إليها همجية متوحشة ، ولكن قبل أن نجاوز هذا المقـــام ، ينبغي ان تعرف أن حضارة العرب وتهذيبهم تركا أثراً خالداً في أهل جنوبي فرنسة ، فبقوا قروناً طوالاً متصلين بالعرب من الوجهة الثقافية . فثنايا جبال البرانس كانت اول مصدر من مصادر الالهام لأوروبا البربرية . ولم يلبث أهل جنوبي فرنسة أن صاروا في بلهنية العيش والرغاهية ، وفشا فيهم الألحاد والانحراف عن الدين ، وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان ازرض جنوبي فرنسة المثل الأعلى في جودة الغناء والطرب .

ونعود إلى الأندلس ، فنقول : إن الخليفة في دمشق ، هو الذي يولي الولاة والحكام في الاندلس ، وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطاً بعيداً في المدنية ، وكانوا دوماً ينفذون اوامر الخليفة ، فشكلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي . ولم يجد العرب إغراقا فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية ، فوجدوا في طليطلة قاعدة ملك القوط الغربيين مقدرا هائلا من الذهب واللؤلؤ . على أنه من المحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخبأة تحت الأرض ، حيث دفنها القسيسون عند فرارهم . هذا وقد أخذ الفارون الأولون – ومنهم الأسقف – معهم كثيراً من الأموال المنقولة . ويروى أن جنود العرب ، وجدوا طائفة من رجال الكنيسة ، فارين . ووجدوا عندهم كرسياً يوضع

عليه الكتاب المقدس ، وكان ذلك الكرسي من الذهب الصلب الخالص مرصعاً بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزمرد واللؤلؤ يساوي نصف مليون دولار ، مع النقود في ذلك الوقت كانت تساوي عشرة أضعاف ما تساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في الأندلس التي بلغت اوج الرقيّ ، إنّما أُسست على الحالة الأقتصادية السليمة في تلك البلاد نفسها . ولا يتسع المقام هذا لذكر تاريخ العرب ، فكتاب (س . ب . اسكوت) الموسوم : « تاريخ المملكة (الأمبراطورية) العربية في اوروبا ١٩٠٤ م » ، يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع ذكر الأدلة ، ولكنه كبير من ثلاث مجلدات ضخام ، فلم تزل الحاجة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم ، واف في بيان عظمة العرب التاريخية ، وكتاب (استانلي بول) ، المسمى : « العرب في إسـبانيا ١٨٩٥ » في سلسلة : (أخبار الأمم) تأليف قوى الحجة جيد ، ولكنه على طريقة المؤرخين في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم . وكتاب شارلوت بونج : « أخبار النصارى والعرب في اسبانيا لى ١٨٧٩ » ، هو أيضاً تأليف نفيس بأسلوب عالٍ ، يدلنّا على ان المرأة النصرانية حتى هي أيضاً تأثرت بما كان للعرب من مدنية وحضـارة . وكتاب واسْنطون ارفنج الذي ادى خدمة جليلة في استحالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يُقرأ الان ، وهو معدود من أحسن المصادر الادبية ، أما فنونهم وما بقى من مدنيتهم ، فكتُبُ كالفرات الموسومة : « آثار العرب في إسبانيا » وكتاب : « الحمراء » ، وكتاب : « قرطبة » ، وكتاب : « طليطلة » ، وكتاب : إشبيلية » وغيرها أفضل وأنفع مما كتب في ذلك . وكتاب دوزي : « الأسلام الأسباني » ، نشر بالانكليزية عام ١٩١٣ م ، ومع أنه من اوائل ما نشر من الكتب الحديثة ، فلا تزال قيمته عند الناس عظيمة ، وهو مع ذلك كتاب كبير ، ولعل تأليف : لين بول (العرب في إسبانيا) وتأليف كتاب : (آثار العرب) أسـهل تناولا وأكثر مناسبة ، وأوصى من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة .

ولست بصدد ما يسمى : التاريخ ، إذ حدثت في مدة من الزمن اضطرابات في الأمور ، وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم ، واشتد فيها التحاسد والتنافس وفسدت سيرة دار الخلافة في دمشق ، فكثر تدخلها في أمور الولاة ، فوقعت فتن عظيمة بين البربر والعرب الذين جنوا ثمرات الفتح ، وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاءوا من مختلف البلدان ، وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة ٧٥٦ م ، فقبض على زمام الأمور ، واتخذ قرطبة عاصمة له ، وجعل نفسه اميراً – وكان في الحقيقة ملكا لمملكة العرب في إسبانيا ، وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاءوا من بعده هم الذين اسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها .

٢ – العرب فى اوج مجدهم :

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن العرب في الأندلس اليوم ، يرجع عهدها إلى زمان متأخر جداً ، وسنبحث الان من مدنيّة العرب التي كانت في أواسط القرن العاشر الميلادي . وكانت اوروبا في ذلك الزمان ، قد بلغت الدرك الأسفل في الانحطاط . وكانت روما متلوثة برجس الفساد ، وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لأصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت . وكانت فرنسة نهباً مقسماً لغارات قبائل الشمال ، كما كانت انكلترا كذلك تعاني من غارات الدانماركيين عليها ، وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فساداً . ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه : مدنية . أما إسبانيا ، فكانت بخلاف ذلك . كانت مزدهرة بالعمران ، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج . وكان فيها تسعة من أمّهات المدن ، وثلاثة آلاف مدينة متوسطة ، وعشرات الألوف من القرى . وكان على شاطيء نهر الوادي الكبير فقط اثنا عشر ألف قرية . ومع أن السير في ذلك الزمن لم يكن سريعاً ، فقد قال المؤرخون : كان السائر في بلاد الأندلس لا يسير مسافة يوم ، إلا ويمرّ على ثلاث مدن ، وأما القرى ، فكانت لا تنقطع تقريباً ، وكانت على أحسن حال

من العمران ، ومدينَة قرطبة عاصمة لملكهم ، كان عدد سكّانها لا يقل عن مليون نسمة . وإشبيلية في وقت من الأوقات تحوي خمسمائة ألف نفس ، ومدينة المرية خمسمائة ألف نفس أيضاً ، وكان في غرناطة اربعمائة وخمسة واربعون ألفاً ، وفي مالقة ثلاثمائة ألف نفس ، وفي بلينسية مائة وخمسة وعشرون ، وفي طليطلة مائتا الف .

ويقدر مجموع سكان الأندلس بثلاثين مليوناً ، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب ، هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنيّة . وقد علم من الاستقراء ، أن السكّان إذا كانت صحتهم جيدة ، وتدبير الصحة سائراً على أحسن حال ، فأن عددهم يضاعف في ربع قرن . وهذا يدلّك على عمل العرب من الأعمال الجليلة ، ويبيِّن لك كيف أفسد الأسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها . وإذا علمت أن سكّان إسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليونا ، فيجب أن يبلغ اليوم مئات الملايين ، فاعلم أنه اليوم لا يزيد عن اثنين وعشرين مليوناً . فرقم ثلاثين مليوناً في القرن العاشر ، برهان ساطع على ما كان للعرب من العلم والحكمة . وخذ مثلا إنكلترا ، فأن سكانها كانوا إذ ذاك مليونين او ثلاثة . وكانت العناية بترقية الزراعة أساسا لعمران الأندلس .

والناس الذين لم يروا اسبانيا قط ، يرون فيها رأياً مبهماً غامضاً ، أغلبه مأخوذ من الروايات ورقوق الخيالة : أنها ارض خصب ، حضرة نضيرة وازدهار دائم ، وغناء وعشق لا ينتهيان . والأندلس ، وهي الناحية التي استوطنها العرب ، إذ لم يهتموا كثيراً بالناحية الشمالية ــ لها صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرة العيون والهوى العذرى والورد وآلات الطرب ، وهذه شهرة لا تستحقها . وأنا أحب الأسبانيين ، فيمن أحبّه من الأقوام الذين سحت في بلادهم ، ولكن الطرب ليس من شمائلهم ، وليست الأندلس ارض عشق وازهار وغناء ، وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء ، مصابة بداء القسيسين ،

تحكم حكماً مرذولا ، ترى في ارباضها وفي أكثر أيام السنة زربيّة محترقة رقيقة من النّبات ، والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكا من الأرض ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبدادا الجيش ، يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوساً مرة اخرى . أما اليوم ، فهي محرومة من رأس المال والأعمال ، ولا ريب أنّها كانت فردوساً في القرن العاشر ، حتى نجحت مثل ذلك النمو في السكان . وكان لأهلها ذكاء فساعدوا به الطبيعة ، وكانت الانهار الصناعية والجداول ، توزع الماء وتروى الأرض ، حيث الفلاح الأسباني المسكين اليوم ، يرى المطر ينزل في رؤوس الجبال ، وتسيل به الاودية ، وتجري رأساً إلى البحر . والقيعان الواسعة العقيم اليوم ، كانت في زمن العرب حدائق غلبا ، وكانت تؤتى غلاّط ذهبيّة ، وحتى سفوح الجبال ، قد سُطحت وأُلحقت بالارض الزراعية . وفي كثير من البقاع ، كانت الأرض تعطي اربع غلاّت مختلفة في سنة واحدة . وكانت الأقوات كثيرة ورخيصة جداً ، وأضاف العرب جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومانية في إسبانيا ، فكان الآس يفوح بريحه العطرية ، مقرونة بريح الورد والأترج ، والنخل باسقات في سطورها ، تواجه القبة الزرقاء ، وكانت بلاد جنّات ، جنات لا يوجد مثلها اليوم إلا في قليل من البلدان . وعلى هذا الأساس ، قام هناك نظام تجاري صناعي في غاية الأتقان . ولا اريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر ، وإنما اريد أن أذكر بالسيوف الفولاذية التي كانت تصنع في طليطلة ، والأدوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت أفضل الطرف في الدنيا ، وكيف كان الأسطول التجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهيّة لمأت الألوف من الناس ، وكان العرب رومانيسين جدداً . فأنهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة والنحاسيْن وتجار الجوارى الراقصات وتجار الحرير وتجار الجواهر من جميع ارجاء الأرض . ولم يكن الخراج مجحفاً ، وكان في الغالب يتألف من عشر الغلاّت

وعشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والاجار . ولكن كان الدخل مدهشا ، وكان دخل خليفة ذلك الوقت وهو عبدالرحمن الثالث على ما قيل أكثر من (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) دولار سنوياً . ولاتنس أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان ؛ بحيث يمكن أن يشتري بها أضعاف ما يشتري بها الآن . وسنرى وصف هذه الثروة أوضح في الفصل التالي . وكانت الثروة متساوية عند الأعيان والتجار ، وقد قرأنا أنّ وزير عبد الرحمن الثالث أهدى إلى ملكه هدية وهي ضيعة غاباتها تحتوي على عشرين ألف شجرة ، وستين جارية حسناء ، ومـائة من الجياد الصافات، والبغال الفارهات ، وثمانمائة لأمَة (٨٢) من أجود العتاد ، ومايساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس وقد قدّر المؤلفون العرب الذين يختلفون عن جهلة أوروبا الرهبانيين جدّ الاختلاف هذه الهدية بـ (٥،٠٠٠،٠٠٠) دولار وسنرى في الفصـل الآتي أكثر ممـا رأينـا ، فهناك نرى من الترف الذي أوجدته تلك المدينـة شيئاً يدهش العقول ، وعلى ما كانت عليه ملوك العرب العرب من البذخ والترف فأنهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح العـامة ، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقاً لم يفعل مثله من ملوك النصارى إلاّ قليل ، وسأعقد فصلاً أذكر فيه أعمال ملوك العرب في العلم والأداب والفلسفة . وهنا أشير إلى الملوك الذين انشأوا مدنية الأندلس (من سنة ٧٥٦ م الى سنة ٩٦١ م) كانوا حماة كرماء ومحبين أوفياء للعلم وأهله ، وكانوا أكثر الناس سخاءً وجوداً في مناصرة الشريعة والتعليم ، وهم أنفسهم في كثير من الأعيان لم يكونوا قاصرين في الأدب . فالخليفة الحاكم الثاني الذي كان ملوك النصارى في زمانه لايقـدرون ان يكتبوا أسماءهم إلاّ قليل منهم ، كانت خزائن كتبه تحتوي على نصف مليون كتاب ، ويروى أنه كان ملماً بما تضمنته . وكان الخلفاء

(٨٢) اللأمة : اداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع . (ج) : لأمْ ولِؤَم .

ينفقون على كثير من المدارس من مالهم الخاص، وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال . وكانوا يرقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الرومان بعناية تامة ، فيصلحون ما فسد منها، فكان للبلاد نظام للمواصلات يليق بصناعتها وتجارتها . وعجلات السيارات الثقيلة اليوم ، كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجدّدها العرب . وجدّدوا القنوات وأنشئوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي لا للسقي فقط ، بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة بترده في جميع الطرق المهمة في المملكة . ولأجل أن نقدّر هذه الأشياء حق قدرها ، ينبغي أن تتذكرّ دائماً الأختلاف بين هذه البلاد وبقيّة أقطار أوروبا . فأمهات المدن الأروبية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتي بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ ، فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تجتمع فيكوّن منها حياض بعد ما علمت النهضة في أوروبا عملها قرونا طويلة . أما في مدن العرب . فكانت الشوارع مبلطة منورة . قد سوّيت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر . قال اسكوت : بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
قناة منهنّ تقدر أن تسع حماراً . وكانت الشوارع مجهزّة أحسن تجهيز بالشرطة، وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأمريكيون في هذا العصر شيئاً واجباً . ولكنها كانت في ذلك الزمان في نظر الأوروبيين أعجوبة من آعاجيب الرقيّ التام ، فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام ، وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كلّ مكان . أما في بقية بلاد أوروبا ، فلم يكن فيها ولا حمّام واحد. وكان أشراف أوروبا. رؤساء الأقطاع منهمكين في الرذائل إلى حدّ يحجم الأنسان عن وصفه . ولم يكن لبس الكتان النظيف

معروفاً في اوروبا ، حتى أخذت (مودة) لبس طراز الكتان من المسلمين ، ولم تكن الزرابي تصنع هناك ، وكان الحشيش يغطى ارض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس ، وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الو صف . ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه . وفي ذلك الوقت ، لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية ، ولكن في إسبانيا العربية كان الناس في جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهيّة . وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعداً في صحون الدور والقصور والاماكن العامة . ولايزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان جميلان من المرمر يزنيان ذلك الصحن ، حيث كان كلّ مصَلّ يتوضّأ قبل أن يدخل المسجد ، ووصفها اسكوت في هذا الزمان (١ — ٦٧٥) فقال : « هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضاء للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق ، والان يمدان بالماء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة المنفردة والأخلاق الوحشية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي اليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة . هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا ، وان الأنسان يميل بطبعه إلى التقهقر والعودة إلى أحوال الهمجية . وتشهد به لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر ، وأن سياستهم التي لن تجد لها تبديلا ، أُسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية » . وهذه العدد التي اعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ، ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة ، على حين كانت جميع بلاد اوربا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي اربعة او خمسة قرون . ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط ، فمع كثرة النفوس المفرطة ، كانوا الايرون أحداً يصاب بمصيبة إلا نفسّوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لا يمكن اتقاؤه منها . وكان يساعدهم على أتقاء النكبات اتخاذهم نظاماً حسناً في استخدام البطالين في إصلاح الطرق والاشغال العامة . وكان

عبدالرحمن الثاني قد أعلن أن كل مَنْ يريد العمل يمنحه . ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب ، كما اثبته المحققون ، كانت منزهة عن كل ريبة أو فساد . وكانت المعارف والتعليم كما سترى في فصل آخر ، أحسن مما كانت في ممالك الرومان ، ولم يكن يضاهيها إلا ما بلغه اليونان من المعارف العالية في ارقى أيامهم . والخلفاء انفسهم شيدوا المارستانات، ودور الأيتام ، كما كان يفعل ملوك اليونان – ومنذ زوال ملكهم زالت هذه المؤسسات من اوروبا – وكان الأعيان والتجار لا يألون جهداً ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدي القرآن في مثل هذه الخيرات . وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون من المكروبين لينفوا كربهم .

والنساء اللائي كنّ نزلن إلى دركة الخدم في بلاد اوروبا عملاً بما روته التوراة في قصة حواء من المحال ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة . كنّ على خلاف ذلك عند العرب مكرمات مالكات حريتهنّ . وللكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذين حلا محلّ التقشف والتعصب في دمشق . انتقلا إلى الأندلس ، فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة . والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا ، لم توجد في الأندلس إلا في اواخر أيامهم . والنساء في القصر الملكي بقرطبة ، كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور ، وإن مالت طباعهنّ إلى غير ذلك لم يكن من الصعب عليهنّ الاتصال بالأدباء والشعراء واصحاب الفنون الصناعية . وكان طلب العلم مباحاً لهنّ بكلّ حرية ، وكثير منهنّ كان بهنّ ولع بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها . وكانت النساء يتبرقعن خارج بيوتهن ، ولكنهن كن مكـــرمات ، وفي منازلهن كنّ مشرفات ومحترمات .

ولا حاجة بي إلى أن أتكلم عن ظرف العرب وشهامتهم ، لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الأسباني طبعاً لا يُمحى أبداً على الاحترام الشخصي واللطف التي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصنّاع والفلاحين . وهناك مزية أخرى يمتاز بها العرب ، وهي التسامح الديني ، وفي أول لأمر كان هناك بلاشك شهداء يعني مقتولين لمخالفتهم في الدين – ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها لأسبانيون أخيراً في ذرية العرب . وأما بعد استقرار المملكة العربية في الأندلس، فاذا استثنينا مُعاملتهم لطوائف الثوار من النصارى، كأهل طليطلة الذين كانوا دائماً ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال ، فقد كان أهل الأديان جميعاً يعاملون بالحسنى ، وكانت على يهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم ، وكانوا يتمتعون بحماة حقوقهم ، فكثير عددهم وعظم بذلك الخرج الذي يؤخذ منهم ، فكن الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية ، ورخصوا لنصارى طينطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى . واخيرا اشتريت منهم بثمن غالٍ جداً ، ورخصّوا لهم بأن يبنوا عدداً كثيراً من الكنائس . وكانت لهم في طليطلة ست كنائس ، وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم ، حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية . وأما ما يخص يهود الذين كانو يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذٍ ، وارتقوا إلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة العرب ، فأتكلم عليهم في فصل آخر . وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية العرب ، ستزادد وضوحاً وتفصيلاً عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة . ولابد أن القارىء علم مما ذكرناه آنفاً تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة ، ولابد أنه رأي أثرها في اوروبا المتوحشة ، وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين . والمؤرخون لا يقابلون بين العرب والنصارى ، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل بوستن – مدينة في امريكا – بقبائل الاسكيمو ، وذلك عجب عجيب ، قال استانلي لين بول في شأن النصارى

الذين كانوا قد استولوا على شمالي إسبانيا في حينه: «كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على من يكون لهم فريسة. وكانوا خشناً جاهلين أميين لايقدر على القراءة منهم إلا قليل جداً. ولم يكن لهم من الأخلاق إلا مثل ما لهم من المعارف– يعني لم يكن لهم منها شيء–وأما تعصبهم وقسوتهم، فهو ما يمكن أن تتوقعه من الهمج البرابرة».

ثم قابل بعد ذلك بين المحتلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى – يعني أشراف اسبانيا – وبين العرب (ص ١٨٩) ، فقال : « اتصف النصارى في شمالي إسبانيا بأقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم العرب . جاء العرب تلك البلاد ، وهم عشائر بدو حفاة ، ثم رقت طباعهم إلى أن صاروا شعباً عالي الكعب في التمدن . يستلذون الشعر واالطائف الأدبية . وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله ، وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حدّ ممكن . وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة، فالموسيقى والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لامزيد عليه يظهر أنها كانت طبيعية غريزية لهذا الشعب الزاهر. وكانت لهم سجية معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم الى الأمة الفرنسية، أما نصارى الشمال. فكانوا بضد ذلك على أقصى ما يتصور، فكانوا جفاة غير مهذبين . ولم تكن آداب الفروسية التي أدخلها المصنِّفون في تاريخهم. لتخطر لهم ببال . وفقرهم الشديد جعلهم خدماً لكل مَن يريد استخدامهم، وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل مَنْ يدفع لهم أغلى ثمن لها ، فكانوا يحاربون لتحصيل القوت » .

ثم أرانا – يعني اسكوت ، أن (سيد) (٨٣) الذي لايزال حتى اليوم زينة لكتب الأدب . وزهرة من ازهار الفروسية النصرانية ، كان خائناً قاسياً غداراً ناقصاً للعهود لا إيمان له ولا ذمة . يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين المسلمين والنصارى .

---

(٨٣) يقال انه من سنة ١٠٤٠ وطار حيته فى الحرب التى وقعت بين امير قشتالة شانسوو رئيس نفار وابى عبدالله ملك غرناطة ، وكان تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين .

ومِس شارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شأن العرب والنصارى منذ خمسين سنة ، لم تجد ما تسلي به دينها إلا شيئاً واحداً وهو قولها : « قد بلغ الأسلام أعلى درجات الألهام في زمان مدنية العرب في الأندلس ، ولكنه انقرض بعد ذلك . وأما النصرانية ، فأن لها آمالاً في المستقبل غير محدودة » .

وفي هذا خطأ مضاعف ، فالأسلام هو الذي ألهم العرب مدنيتهم ولكنه لم يمت ، والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شتى .

والحقيقة أن مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية ، ولكن المدنية التي دخلت اوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كانت لها صلة كبيرة بالعرب ، أي أن مصدرها كان منهم ، فالنور الذي اشرق في اسبانيا ، لم يكن بدّ من أن ينبثق إلى اوروبا ، فالأسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من اسبانيا ، عندما أخلد العرب إلى ارض الترف والبذخ ، وانحصروا في القسم الجنوبي الاندلس — لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم — يعني أنهم اخذوا يقتبسونها ، وكان السيّاح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن العرب ، يعودون إلى أوطانهم فيقصّون من من أخبار العرب وعلومهم وحضاراتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشوقها إلى تلك الحضارة المتميزة الفذة .

٣ ـ مدينة النور والحب :

مدريد (مجريط) التي كانت في القرون الوسطى قرية مظلمة ، هي واقعة تقريباً في وسط إسبانيا ، وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثرة بالثلوج حتى حين مررت بها في الشهر السادس (جون — حزيران) ، وكان الجو حاراً . ولما انطفأت نار الغيرة وحبّ الفتح في قلوب العرب ، تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية ،

فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة ، وبمرور الزمن تألفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال . أما كيف قاتلت هذه الأمة الصغيرة إلى أن استولت على إسبانيا كلها واستردتها تارة أخرى ، فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ العمليات العسكرية ، ويحق للأسبانيين أن يفتخروا من حيث هو استيلاء على الأرض ، ومن سوء الحظ قد قضى هذا الاستيلاء على المدنية قضاءً مبرما .

ولست بصدد ذكر العمليات العسكربة هنا ، والذي اريد بيانه ، أنه في سنة ١٠٨٥ استرد الاسبانيون اقصى مدنية في الشمال من أيدي العرب وهي طليطلة قاعدة ملك الأسبانيين القديمة . وهذه المدنية اليوم في حالة تدل على ما جناه الأسبانيون على المدنية في قضائهم على العرب . ولهذه المدنية موقع فريد لا تشاركها فيه مدينة اخرى . فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض . والنهر محيط بها من ثلاث جهات . وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة (٢٠٠,٠٠٠) نسمة في غبطة وسعادة . وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري . لأن قيونها كانوا أمهر القيون في العالم وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئاً من اخبار طليطلة المدينة العربية العظيمة . واليوم بعد مرور ثمانية قرون من استرداد طليطلة ، ترى سكانها نحو (٣٠,٠٠٠) ألفاً من الكسالى . يدبون دبيباً في شوارعها المهجورة الخامدة . ويعيشون على كرم الزائرين . ولما ركب الأسبانيون ودخلوها ، يتقدمهم رئيس أساقفتهم . حين رفست المدنية تحت الأقدام وتلاشت ، شيدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد . ولكن من جهة اخرى انحطت المدينة إلى حال أنها صارت قرية كبيرة . فكأنما بنيت الكنيسة لخراب المدينة . والجسر العظيم الذي على النهر متين جداً ومفيد كثيراً فلذلك لم يقدروا على تدميره . وباب المدينة العجيب ، باب الشمس . قد أبقوا عليه ، فهو يظهر اليوم تذكاراً محزناً لماضٍ مجيد . ينظر إلى الخراب . ويندب مجده البائد . وأما سائر المدينة

القديمة العجيبة ، فكأنها لم تغن بالأمس . ولو بحثت بجدٍ واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة ، لوجدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر . وتدور مبهوتاً في شارعها الرئيس ، وهو زقاق ضيق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم ، تطلب مكاناً طيباً تستريح فيه ، فيكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة ، تتغذى بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحى مجد العرب نحو الجنوب إلى اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة . وكان الجنوب الشامس وطناً طبيعياً للعرب . ومن العجيب أن لا نجد إلا قليلاً ممن يعرفون أن قرطبة كانت تضاهي في عظمتها ومجدها بابل وروما وبغداد ، هذا مع أن عهدها ليس ببعيد . ومنظر قرطبة اليوم منظر محزن . ولا أريد باليوم بهذا النوح والعويل الدائم الدائم أن أهيج أو احاول ان أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الاسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة . وأنا أشدّ تأسفاً وتحسراً على خسارة النوع البشري مني على جناية أولئك الجناة . لو أن الممالك النصرانية عملت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق ، والرومان في ايطاليا ، وفرنسا وإنكلترا في شمال افريقية ، وبعمل هؤلاء العرب في طليطلة وإشبيلية وغرناطة، كيف كنا نكون اليوم ؟ لم عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع اوروبا لبلغت اوج المدنيّة وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ، ولكانت امريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر واسبق مما وقع لها ، وكان النوع البشري اليوم متمتعاً بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة ٢٥٠٠ م .

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة ؟ نعم ، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ماعدا زماننا هذا ، وكان بإمكانها أن تعلّمنا دروساً كثيرة من فنون المعيشة .

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى إلاّ أثر واحد ، وهو جامعها الذي لايزال حتى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجداً . ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة ، ولو كانت على بعد خمسة أميال منه ولكن الناس من جميع انحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه . وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس ، وهو آية لانظير لها من الهندسة والبناء ، وظاهر هذا المسجد لايستولى على اللّب . ولم يكن العرب ، الذين كانوا يفضلون الأقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبياً ، بالمظاهر كثيراً ، وأما في الداخل ، فهناك العجائب . إذا دخلت الجامع من أيّ باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر ، ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليسب ، وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشر سارية . وفيه تسعة عشر رواقاً ، ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر ، وله سقف خشبيّ منخفض نسبياً زخرف أحسن زخرفة بالأرجوان والذهب . وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس ، ليحترق فيها الزيت المعطر . وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح ، فتلقى أنوارها على ذلك المشهد : وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدماً ، يحمل ألفاً وأربعمائة وأربعاً وخمسين مصباحاً . ولها مرآة تعكس النور ، فيزيد شعاعه تسعة أضعاف. وفيها(٦٠٠٠) طبق من الفضة ، مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ . وكان الجامع قد شُيِّد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر . والمحراب الذي هو أقدس محل في مسجد العرب ، كان فيه حنيتان ، وكان أعظم زخرفاً من سائر المسجد . وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام ، وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفسيفسائه الجميلة . وأحيل القارئ على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ، ليرى عجائب (هذا الجامع العظيم . وكان بناؤوه من النصاري المنتمين الى الكنيسة اليونانية . وكانت بينهم وبين العرب مودة فجلبوهم ابنائه) ، وهو أثر لمدينة زاهرة لايضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلّها . وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة ، قد جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق

التي قضى فيها أوائل عمره . وهو الذي ابتدأ بناء الجامع ،وأتمه الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وبلغت نفقاته على ماحدّث به مؤرخوا العرب(٣٠٠و٠٠٠و٠٠٠) دولار . وإنما كان هذا آخر عمل عمله في حياته ، وقد شيدّ غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصوراً فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدينة كلّ سنة جلالة وبهاء . قدّر اسكوت سكان قرطبة في أزهى أيامها بمليون ، وآخرون قدّروهم بنصف مليون ، ولكنّ مؤرخي العرب حدثونا بأنه كان فيها عشرة آلاف قصر ، عشرة منها للملك ، و (١١٣٠,٠٠٠) دار و (٧٠٠) مسجد و (٩٠) حماماً عمومياً و (٤٣٠٠) سوق و (٥٠٠٠) طاحونة على شاطئ النهر والآن بعد تقدمنا كلّه ، فقرطبة بلدة منحطّة حقيرة ، سكانها نحو مائة ألف ، من ذوى المناظر الكريهة الأموات ، وإن كانوا يعدون من الأحياء .

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال ، كلها مضاءة ومبلّطة تبليطاً حسناً ، وإلى الآن لا نزال نطأ بتبليط العرب في كثير منها ، ومجاري مياهها كانت منظّمة جيداً ، ولا تزال مئات من الدور باقية ، فيمكنك أن نتصور معيشة أهل البيت العربي : تدخل من باب حديدي ضخم جميل ، ثم تمرّ في دهليز قصير مظلم ، فتصل إلى صحن الدار ، وهذا الصحن هو وسط البيت ، فترى هناك أزهاراً ورياحين وبسطاً من الحرير والفسيفساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة ، وتجد في كلّ صحن تقريباً فسقيّة من المرمر ، كلّ ذلك يجعل المنزل مقاماً بهيجاً تحلو فيه السكنى ويطيب فيه العيش . وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا) ، ثمّ وزّعوه على المنازل في أنابيب من الآنك . وكانت النظافة عند المسلمين فرضاً مقدساً ، حتى أنّ النصارى حين استولوا عليهم دمّروا الحمامات ! !

وعندنا وصف دقيق ، لقصر بناه عبد الرحمن ، على ثلاثة أميال من قرطبة . وإذا ذكرنا أنّ القياس ممكن ، فسنعرف شيئاً من معيشة أهل قرطبة في القرن العاشر . بُني القصر لتكريم امرأة ، وهي محظيته الزهراء ، فجعل

لها تمثالاً جميلاً من المرمر نصبه على باب القصر ، وكان يشتغل في بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة ، وبقوا يعملون فيه سنين ، وينبغي لنا ان نفرض أنّ هذا القصر قد بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان ، فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة ، لأنّ وصفهم كان لايعتمد عليه تقريباً . فقد زعموا أنّ له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية جلبت من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة وغيرها . والأيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف ، وكانت رءوسها مرصّعة باللؤلؤ والياقوت ، وكان جريدة سقفه من الذهب والفضّة ، وكانت جدرانه وقبّته من العقيق اليماني ، وكان له ثمانية أبواب من الأبنوس والعاج مرصعة بالجواهر ، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النعمة ، وكانت الحدائق واسعة جداً ، حتى أنّ الحيتان التي كانت في حياضها ، وكانت كلّها من (السّمك الذّهبي) كان قوتها اليومي اثنى عشر ألف رغيف من الخبز . وكان عدد الخدام الذكور (٧٥٠و ١٣) وعدد الأناث (٦٣١٤) وعدد الخصيان والوصفان (٣٣٥٠) . وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثمّ من الطعام يومياً ، بحيث لايخفى علينا منه أوقيّة واحدة . وكان طعاماً فاخراً هنيئاً مريئاً . وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لقرض الشعر والاشتغال بالموسيقى ، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية ، كان لهما الاعتبار التام هناك . وكان الأعجاب بهما لايقصر عن الأعجاب بقدّ جارية حسناء أو عينين كحلاوين لخريدة محظيّة بيضاء في غلالة حريرية سوداء من غواني الحريم . وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثنى عشر ألفاً من خيرة الجنود ، يلبسون أفخر الحرير ، ولهم مناطق مذهبة وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة ومقابضهـا مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة ، وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية . وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية . وكذلك كانت مدينة الزهراء

مدينة تسبي الألباب وتسحر العقول بجمالها ، وإن سألت عن حالها اليوم ، فهي في حالة لاتستطيع أن تشبع قليلاً من المعز . وكلّ شيءٌ كان هناك ملكياً، والموسيقى والمغنى الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديباً من أعاجيب الزمان ، وكان مرتبه (٠٠٠ ، ٤٠) دينار من الذهب في كلّ سنة ، وهو أكثر بكثير من مرتب رئيس الولايات المتحدة . وهــذا النعيم الذي لم يمضي عليه إلاّ أقلّ من خمسمائة سنة ، لم يحفظ منه الأسبانيون مثقال ذرّة . وكان يصبّ في خزائن الملك في كلّ سنة ، نهر مفعم من الذهب ، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والأدباء والعلماء وكبار التجار وغيرهم . وكانت القصور الفخمة ممتدّة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال ، وكانت أسواقها أغنى أسواق الدنيا ، فلم يسمع سامع بشيءٌ من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطيّة النادرة أو البُسط والزّرابي البديعة أو آلات اللّهو في أي رجاء من أرجاء الدنيا ، إلاّ وقد جلبت إلى تلك الأسواق . وحال أمريكا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنّسبة إلى غيرها من البلاد ، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية . وكانت الحدائق العامة المعدّة للتنزه نزهة للأبصار ، وستعلم شيئاً من ولوع العرب بالحدائق والجنّات ، إذا رأيت الحديقة المعروفة بالقصر في إشبيلية ، وكان العرب يتوخون الجمال في كلّ شعبة من شُعب المعيشة .

والعرب أنفسهم كانوا صنّاعاً ماهرين في الأدوات المعدنية والجلدية ، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية . وكانوا يصنــعون الفسيفساء العجيبة ، وينقشون النقوش الجميلة على الأواني والادوات المنزلية . وكانت لهم مهارة عظيمة في دهن الأواني الخزفية ، وكانو حاملي لواء زخرفة البيوت والقصور وزينتها ، وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يعرفها أحد في الدنيا غيرهم ، وكانت لهم معادن كافية من الرخام والمــرمر ،ومع ذلك كانــوا يجلون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة . وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر

والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق ، وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضّة والجواهر والمحار والحجر الشفّاف وحجر اللآزورد وجلود السلاحف وكلّ مادة معروفة من مواد الزينة . وكانت خزائنهم المالية عظيمة بالنسبة إلى عصرهم ، إلى حدّ أنّهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلّها من الوجهة المالية ، وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة ، إلى حدّ لم يصل إليه إلا قليل من الأمم . وقصور الأشراف وأصحاب المناصب والأدباء ، كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخلفاء ، وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس . وعلاوة على ذلك ، فمات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء ، والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطئ الوادي الكبير . كانت نعمة ورفاهية للناس جميعاً من الخليفة إلى أدنى الطبقات . وفي كلّ أمر من تفاصيل معيشتهم ، أبدوا سلامة ذوق لايمكننا نحن أن نأتي بها . والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة ، لم تكن أسماؤها : (بوتس فيل Pottsville) و (نيوتن Newton) بل كانت أسماؤها هكذا : وادي الفردوس ، والوادي الجميل ، وحديقة العجائب ، وهكذا . ولقد صدقوا ، فأنها كانت كذلك ، وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات . وحولها غابات الاترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الغضّة الباقية طوال السنة تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون والمخابىء ، والمغارات . وصفوف الأشجار ، وكل فكرة عند الفلاحين المتفننين في الغرس والزراعة ، وقد استعملت هناك مما تشتبهيه الأنفس وتلذّ الأعين . واذا اعتبرت النهر على الجسر العجيب الذي يبلغ طوله (١٢٠٠) قدم وارتفاعه فوق الماء (٩٠) قدماً ، تجد ضاحية حفت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة ، تسحر الألباب ببهائها . ولو لم يكن هناك سواها ، لكانت المثل الأعلى في المدن

وإذا انقضى العمل في كل يوم ، كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقى شجية بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد . وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً ، لأنهما كانت تحوى أعظم المعابد العلمية والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا . وقد (سنّ) أحد الخلفاء ، وكان دينا — قانوناً يقضي ببناء مسجد في كل اثني عشر بيتاً ، ونفذ قانونه ، إلا ان الظرف واللطف كان هو الغالب . وأكثر الناس كانوا يلتزمون بالعبادات الأسلامية التي ينص عليها الاسلام ، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفية . فلا دمشق ولا بغداد وحتى إنطاكية في اوج مجدها ، لم تكن مركزاً للسرور مثل ما كانت قرطبة ، في حين كانت اوروبا متدثرة بالخرافات الموحشة ، ولم تكن في الدنيا قط بلاد اسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة : العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

و أعظم مزية يمكننا أن نمدح بها عرب الأندلس ، هو أن نذكر أن شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللّذات ، كان متحدا على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحققّة التي كانت منتشرة بصورة اوسع مما كانت عليه في روما او أثينا . ولم يكن في الدنيا كلّا ، ولا هو كائن اليوم ، بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافئون بالجوائز العظمى ، مثل ما كان في الأندلس . ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس ، يحوي خرائز الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة ، وجمعاً عظيماً من خيرة والكتّاب البلغاء وذوقاً عاماً في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس ، والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في إيطاليا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة ، إنما كانت تقليداً ضئيلا للعرب .

٤ ـ علوم العرب وآدابهم :

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غمّاً وأسًى ، يدل على أن الفكر البشري لايزال ناقصاً وبعيداً عن الرقي الحقيقي ، وذلك أن الذين يعرفون كيف يعيشون في كل عصر قليل ، وبعد مضي ملايين من السنين على وجود الانسان وستة آلاف سنة على حدوث المدنية والشعور بالوجود ، ونحن الآن نختصم في ما هو الأعلى للمعيشة ، وأكثر الناس لا يعرفون كيف يستعملون نعمها استعمالا موزونا . وتبعة ذلك معظمها يعود إلى النصرانية ، ولكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفون المفكرون وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى . وعندهم أن الحكمة كل الحكمة أن نعرف كيف نعيش ـ وذلك إنما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة ســـواء . لا يفضل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء ، وحتى أثينا كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الاشراقيين أتباع زينو اعداء الاستهتار اللد وخصومهم السايبرانيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه ، حتى أبو قراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافاً لما يعتقده فيه عامة الناس . ولا نقول : إن العرب وصلوا إلى درجة الكمال ، لكن مثلهم الأعلى كان معقولا وممتازاً ، والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة ، وفي الاكثر في التواريخ الخسيسة التي ألفها اعداؤهم الأسبانيون غير الموثوق بهم ـ حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيء من القسوة أو الخيانة او الفجور ، أخذوه فرحين . وأطالوا في شرحه بقصد التشفي والتشنيع . وكل مدنية تشعّ على عشرين مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة ، لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة ، ولكن إنما يستغلها ويتجاهل الأخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم ، المؤلفون المخادعون الذين يُضلون مَن يقرأ كتبهم ، بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذوذ والندور . لقد قرأت جميع التأليف التي ألفت في سيرة العرب مستند على ما كتبه المعاصرون لهم ، فرأيت يقيناً لاريب فيه ، أن أخلاقهم كانت

سامية . ومن فضائلهم انهم تجاهلوا الزهد والتقشف ، وتمتعوا في حياتهم بجميع اللذات التي يقض بها الاستعمال الحكيم للنساء والشعر والموسيقى . وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم ، فهناك ألف قول وألف عمل يجليها في أكبر التأليف التي أُلفت في تاريخهم ، وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب .

وليس ظهورها بأقل من ذلك في تسامحهم مع السكان والزوار من النصارى ماداموا مستقيمين في سلوكهم ، وفي معاملتهم ليهود بمقتضى الأخوة التامة ، وكرمهم الذي هو كنار على علم على المرضى اليتامى والأرامل والفقراء وكانوا يلتزمون بأوامر القرآن الأنسانية في الأحسان إلى المرضى والمحتاجين . وقد التزموا بتلك الأوامر تديناً وكرماً أكثر من الزام النصارى بمواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل . واذا درست التواريخ حق دراستها ، ترى أنما يتبيجح به النصارى من كونهم متمسكين بأعمال الخير والأخوة التي جاء بها الوحي تراه يتضاءل ويتلاشى أمام ما عمله العرب المسلمون من ذلك ، كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في روما عصراً عظيماً في الخيرات والمبرات ، وكان عصر المسلمين في الأندلس عصراً عظيما في الأحسان والبر وأعظم منهما عصرنا هذا الحالي . وأما نصيب النصارى من عمل الخير والاحسان إلى المحتاجين من النوع البشري في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر الأخيرة فضئيل ناقص إلى حد يجعله مسخرة للساخرين ، والحاصل ان الطاعنين في العرب لا يستطيعون أن يغمزوهم إلا بالانهماك في الشهوات ، ولكن ذلك العيب المزعوم، سيكون مزية فخر إذا علمنا أن العرب كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم ، وجيلنا الحاضر على ماورثه من تجارب سته الآف سنة من سير حكامها وروايات أديانها ، حتى اجتمع له في ذلك ما لم

يجتمع لجيل قبله ، منقسم إلى فريقين – ما عدا البؤساء الكومستوليين (٨٤). فريق يجدون في تهذيب النفس وترقية العلوم العقلية والفنون العالية ، ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس . والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة ، انهمكوا في الخمر والفسق ، وأطلقوا لأنفسهم العنان ، وأعطوها أقصى ما تريد من شهواتها ، حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وكلا الفريقين معجب بنفسه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب ، وكلاهما في ضلال مبين .

ومن المزايا التي اختص بها العرب ، أنهم يرون أن السعادة وكمال النعمة إنما هي في المعيشة التي كانت تكفل حظ النفس والعقل في التهذيب على السواء . وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقي الموزون . وكل الطبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء كانوا ينشئون وينشدون الشعر . وكثيراً ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة ، جالسين يتباحثون في الأشعار ، ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم . وكان ولعهم بالموسيقى ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب ، وكانت الأندلس حقيقة في تلك الأيام ارض غِناء وغرام وأزهار ونوافح طيب .

ولكن هذا الشغف بالموسيقى كان مزدوجاً مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حد كدنا نعجز عن فهمه فأين يوجد في عالمنا شخص يداني

---

(٨٤) طائفة فى امريكا ،اسسها انقونى كومستوك (Anlhony Comstoc) (١٨٤٤ – ١٩١٥) ، وكان متقشفاً ، وكان جندياً فى الحرب الداخلية الامريكية ، وكان يريد ان يصلح اخلاق الجيش . ثم دخل فى سلك الانساء وصار زعيماً للثورة على فساد الأخلاق ، ولكنه كان جاهلاً ، لأنه كان يعظم امر الجزئيات ويهمل الكليات ، ومن المعلوم انه لم ينجح فيما حاوله .

زرياب القرطبي (٨٥) . الموسيقى الشهير الذي كان مرتبه (٤٠,٠٠٠) دينار ذهباً في كل سنة ، يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء . وأنا لا أدري هل ذلك فوق مقدرة المغنين في عصرنا أم لا ؟؟ ولكني أعلم أنما عندهم هو جزء مما كان عند زرياب ، وكان عالماً بالعلوم العالية في ذلك الزمان ، كالجغرافية والطب والفلسفة مثلما كان عالماً بالموسيقى ، فاخترع عطوراً جديدة وأدهاناً لتجميل اللون ، وجلب الأغذية والعقاقير ، ووضع طرازاً صحياً للملابس ، وأصلح النظام السياسي ، وأوجد في الناس تهذيباً في الوجهة الاجتماعية ،وكانت نوادره وحكمة تروى حكماً وأمثالا في جميع بلاد الأندلس .

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث ، ملك مثل الحكم الثاني ، الذي كان له شغف في العلوم ، حتى إنه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا واوربا ، حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على أقل تقدير (٤٠٠,٠٠٠) وبعض المؤلفين يقول (٩٠٠,٠٠٠) كتاب خطيّ . وقد أضافوا الى الأشعار العربية والفارسية تراجم اشعار اليونانيين . وترجموا إلى العربية كتب ارسطو وأفلاطون وأقليدس وسائر كتب المتقدمين . وألفوا كتباً كباراً تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ . ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أن الحكم كان عالماً بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه . وكانت تأليفه محل الأعجاب في جميع العالم ، ولم يكن مستبداً ارستوقراطياً من الوجهة العقلية ، وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل ، وأمر أخاه (وزير المعارف) أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم . والمؤلفون الذين يتجاهلون الحكم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبدالرحمن الأول من القسوة على سبيل الندور والقلة ويفيضون في قسوة عبدالرحمن الثالث، يخدعون قراء كتبهم .

(٨٥) أصله من بلاد فارس ، سافر إلى العراق وتتلمذ على إسحق الموصلي ، وقرّبه هرون الرشيد ، ثم سافر إلى الأندلس ، ودخل قصر عبد الرحمن الثاني ، وتوفى بالأندلس في حدود سنة ٨٥٢ هـ .

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامة في ملوك العرب ، ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في روما الوثنية ، ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان . وكان ذلك وادياً خصيباً في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر ، لأن النصارى الاسبانيين اخرجوا مدارس الأمة ، كما فعل اسلافهم النصارى . واسكوت الذي هو أقوى برهاناً وأكثر تفصيلاً ، أخبرنا مراراً أن المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات : « كان في كلّ قرية مدارس كافية لحاجة أهلها وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات وأنفعها ، كل الأطفال الذين قعد بهم العدم عن التعليم ، كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها (الفصل الثالث – ص ٤٩٧) .

وعلى هذا نقول : انه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة ، في حين كان ملوك بقية اوربا لا يقدرون أن يكتبوا اسماءهم في توقيعاتهم ، وكذلك اشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة ، وتسع وتسعون ءفي كل مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تماماً ، وكانوا على غاية من الجهل لا يمكن تصورها ، أضف ذلك أن المعارف عند العرب كان معناه اوسع بكثير جداً مما كان في روما الملكية ، وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر .

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي ، فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة ، وكان التلاميذ يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها ، وكانت للفقراء منهم دور اقامة اعدتها الحكومة مجاناً لهم ، ولهم فيها ارزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس ، وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئاً من الدراهم معلوماً لكل واحد منهم ولم يكن هناك اختصاص في التعليم الا لمن يريد الختلص من بعض التبعات . وقد قال اسكوت : « إن الجامعات والكليات الأندلسية كانت متسامحة : ترحب باليهود والنصارى

والمسلمين على حدّ سواء » . وللعرب مثل سائر : « افترق العالم فريقيق : فريق لهم علم بلا دين ، وفريق لهم دين بلا علم ء» (٨٦) .

مَن ذا الذي لم يقرأ يوماً من الأيام ، في مدرسة العمر العجيبة ، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية بزعمهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؟ وفي سائل والعجب آخذ مني كلّ مأخذ : كم واحداً ممن قرأ كتابي هذا ، قرأ قط أن إسبانيا المحمديّة كانت قبل ذلك بثلاثة قرون ، كانت متعطشة حرى ولا حرارة المحموم للعلم ا للعلم الحقيقي – لالترهات مكاتب القرون الوسطى القشرية ، وكان العلم هناك بلاشك – عند العرب – مائة مرة أكثر انتشارا ، وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى ؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم متبعاً فيه هوى الدين يعني النصراني .

ولم تكن حرية الفكر في الأندلس ، التي أقل ما يقال فيها إنها كانت حالها أعلى وأجل بكثير منها في الممالك النصرانية ، لم تكن هي وحدها تغذي حبّ العلم والولوع به ، بل كان يثيره إجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس ، ولم يرجع بعد إلى الدنيا ، ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال ، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء خاصة وأصفياء ويولونهم أجلّ المناصب في الدولة والقصر . وكان لملوك العرب رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات ، وهو الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شئونها ليس البلغاء في الأقوال أو المكرة ذوي الكيد والدسائس ، بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاياتهم بسمو أفكارهم

(٨٦) يريد ذلك قول الشاعر :

أصبحت فيمن له دين بلا ادب ... ومَن لـه ادب خالٍ من الدين
بقيت فيهم غريب الشكل منفرداً ... كبيت حَسان فى ديوان سحنون

وثقوب أذهانهم . ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة ، ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والأجناد ورجال السياسة . بل كان العلماء من أكثر الناس مالاً ونعمة ، وكان الناس لهم أشد حسداً ، ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم ، بل على علمهم . وهذا يدلنا على أن الأمة كلها كانت محتلفة بالعلم والأدب عارفة قدرهما . ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك ، وتجد في تألف أسكوت كثيراً من فضليات الأديبات منهنّ . وترى أن النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة ، حيث كان الحائزون قصب السبق في النظم والنثر ينالون جوائرز عظيمة .

ولاينبغي للأنسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر ، فيزعم إن العلم في الأندلس كان قاصراً على زخرف القول والتطفّل الظريف ، أنّ الماهر في نسج الألفاظ . كان أسعد الناس حظاً يعيش الترف والكسل ! كلا ، فأنّ نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشاً فقد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم . وجريدة اعمال المشهورين من علمائهم بلغت من العظمة إلى حدٍ يكاد المرء ألاّ يصدّقها . ولكن أسكوت أخبرنا بأن كتّاب العرب – مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنقهم فيه – صادقون فيما يذكرونه من الحوادث .

وقد نسبوا الى ابن الطفيل ألفاً ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب ، وأنّ ابن حزم ألف اربعمائة وخمسين مجلداً في الفلسفة والقانون (الفقه) ، وكانت لهم معلومات عدّة تزيد مجلدات إحداهن على خمسين مجلدا . وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل . فللّه كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين : « طرد الأسبانيون الكفار من أوروبا » كما يزعم المدرسون . وكان قسم من تلك الكتب في علم الكلام ، فلا تستحق أن تعتبر هنا . كان علماء المسلمين قد جاءوا الأندلس من كل رجا

من أرجاء الدنيا، وأحياناً كان يتسرب إليها المتعصبون من أهل إفريقية فيؤيدون السلفيين الجامدين وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية الأسبانية بتافه قول من قال: « إنّ الضعف الوحيد الذي كان في أهل الأندلس إنما أتاهم من قبل دينهم »، ومن الواضح أنّ أكثر علمائهم اختصاصاً بامور الدين هم الفلاسفة، وإنهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الأسلامي منه. وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة: هنديّة كانت أم يونانية، إلاّ أنّ أرسطو كان هو المعلمً الأكبر في نظرهم. لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلاً واحداً نصرانياً، إلاّ ذكر بعده ابن سينا وابن رشد، وساوى بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف، حيث سمى الجميع: « آل بيت الفلسفة »، وذلك يدلنا على أنّ الفضل في النهضة الفكرية في أوروبا يرجع إلى العرب الذين أحيوا فلسفة اليونان بعد دروسها، قبل النهضة الأخيرة الأوروبية بأربعة قرون.

وكان أرسطو يكره الهراء الذي يسمى فلسفة إفلاطون في الألاهيات وماوراء الطبيعة، وكان أرسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء المتقدمين، وأعظم تحقيقاً للمسائل العلمية. وإنه ليزيدنا عجاباً بهذه الأمة — أمة الشعراء وعشاق الجمال، أنّهم قدسوا أرسطو حتى كادوا يؤلهونه. وما بلغ عمر ابن سينا ستة عشرة سنة، حتى صار من كبار العلماء، وصار وزيراً عظيماً وهو ابن ثلاثين. وأفيروس واسمه الحقيقي: ابن رشد، هو الذي ألّف الشرح الشهير لكتاب أرسطو، وذكره دانتى (٨٧) في كتابه: الكوميديا الألهية، وهو الذي أثنى عليه حتى الراهب (سافوناورلا Savonarolla) وقال فيه: « رجل كانت له عبقرية ربانية، وكان مكباً على الدرس ومنهمكاً فيه، حتى إنه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته: ليلة عرسه، وليلة وفاة والده ».

(٨٧) انظر لمحمة من سيرته فى الموسوعة العربية الميّسرة (٧٧٨).

وكان ابن رشد ، وهو من فلاسفة العرب ، طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة ، وقد خدم فلاسفة العرب العلم والفلسفة سواء ، وكان على ذلك المتخصصون في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة ولا سيما الرياضيات والفلك والكيمياء والطب .

الفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوي عليها كتاب أسكوت ليست إلاّ إشارة مختصرة لأعمال العرب العظيمة ، ولا ينصفهم بأعالهم إلاّ مجلد ضخم .

وكان علم الهيأة من أجلّ علومهم التي هذّبوها ، وكان علماء الفلك في بغدادهم الوارثين لعلوم بابل والأسكندرية ، وانتقل ذلك إلى الأندلس . وكانت بيوت العبادة — المساجد — تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماويّة، كما كان في إبابل . فكانوا يرصدون النجوم على رءوس المنائر . ولعل الكدانيون علماء الفلك منهم . قد اكتشفوا كلّ مايمكن اكتشافه بالعين المجرّدة . ولكن علماء الفلك من عرب الأندلس . كانت لهم آلات ذات دقّة وإحكام ، مركبّة على رءوس المنائر . ولم يكن عندهم (تلسكوب) طبعاً ، وإن كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات . وروجربيكى (Roger Bacon ١٢١٤ — ١٢٩٢) الفيلسوف العالم الأنكليزي ، مدين لهم بأكثر مما يتصوّر المعجبون به من الكاثوليكيين . وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب وعدّة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضيّة والسماويّة . وقد اكتشفوا أنّ (الصّاعقة) . وتسمى في غير إسبانيا من بلاد أوروبا : (النجم الثاقب) كتلة كثيفة تدخل جوّ الأرض . ولهم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلة كثافته . ووضعوا جدول لحركات النجوم ، ووضعوا أوّل استنباط مدقّق لطول السنة . وأدركوا السّذوذ الواقع في مدار الأرض . ووضعوا رقوماً للتعاقب الاعتدالين .

والكيمياء الأولى لفظ عربيّ ، وكذلك الجبر . وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمسلمين علينا من فضل في الوجهة العلمية . لقد استنبط العرب المسلمون قواعد الكيمياء ، ولو أنّ مدنيتهم أُبقي عليها واستمرّ تقدم ثقافتهم لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه . والعرب هم الذين اخترعوا البارود لا أهل الصين كما يتوهّم العامة ، ولست أعني أنّ اختراع البارود نعمة ، وإنما ذكرته آية على خصب عقول العرب وأنّه من ثمرات علومهم ، وهم أول مَن صنع البندقيات ، وصُنعت المدافع في القرن الثالث عشر . ولا شك أنّ الكيمياء القديمة هي الصورة الابتدائية للكمياء الحديثة . ولقد كان فيها ضياع عظيم للأوقات في تتبّع الأوهام ، ولكن من الواضح أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردّها إلى عناصرها الأولى .

ولهم فضل عظيم في السّبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات ، ورسموا جداول للثقل النوعي أو الجاذبيّة الأرضيّة . وقدّروا تخميناً دقة الجاذبيّة الشَعرية نسبة إلى الشعرّة لدقّتها — وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الأبرة المسماة عند العامة بالبوصلة ، وأمّا أهل الصين فأنما أوصلوا إلى العرب علم مناسبات الأبرة المغنطيسيّة ، والعرب هم الذين ركبوها في دائرتها ، واتحفوا الملاّح بهذه الآلة التي لاثمن لها عنده . واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة . واتقنوا الميزان ، وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية بالرقوم الروميّة الثقيلة المتعبة ، وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذّبها فيما بعد روجر بيكن ، ووضعوا قواعد الكهرباء التي بني عليها جربرت (Gerfert) مباحثه . وحتى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه ، ووقفوا على السنّة الكونية في التفتّت ودرسوا طبيعة الصخور .

وأما علم المعادن ، فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر . قال الدكتور وود ورد (Woodward) في كتابه (تاريخ علم طبقات الأرض (History of Geology) : « ومن الذين ألفوا في صورة المعادن وتركيبها الطبيب « ابن سيناء » ، « على حين كان العرب هم قادة العلوم في الغرب » . وقال الأستاذ فوربز (Forbes) في كتابه : تاريخ علم الهيأة (History of Astronomy) : « وابن رزفلة من أهل طليطلة أضاف تحسيناً عظيماً إلى الجداول الشمسية » . وقال الأستاذ ميال (Miall) في كتابه : تاريخ علم الحياة (History of Biology) : « عند الكلام في العلوم على وجه عام ، لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء » . وقال السير ادوارد ثورب (sir Edward Thorpe) في كتابه : تاريخ الكيمياء (History of Chemistrys) : « لقد تقدم علم الكيمياء الحديثة تقدماً معتبرا » ، والحقيقة أنك لا تجد علماً من العلوم إلاّ والفضل الأكبر فيه للمسلمين من أهل المغرب وأهل الأندلس . وأعظم من ذلك كله أنّ لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبثّ روحها وعزمهم العظيم على أن يجدوا قواعد صحاحاً لسنن الطبيعة الحقيقية ، وإن كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة ، ولكن لم يمكن محوها من ذهن الأنسان .

وسجيّة الأنسانية الكاملة التي كانت متمكنة من العرب المسلمين ، حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب ، وكان علم الكيمياء عندهم في أوّل الأمر إنما هو علم إضافيّ لتكميل علم الطب ، أي علم العقاقير . ووجد العرب المسلمون في هذه الوجهة أمامهم عقبة كئوداً بسبب المتعصبين في التصدي لتشريح أموات البشر . ولكن لاشك في أنّ كبار مدرسي الطب العرب شرّحوا الحيوان ، بل لانستبعد أنهم شرحوا أجساد الأناسيّ خفية . وعلى كلّ حال فخدمة الأطباء العلمية ، كانت قد ارتفعت هناك إلى مستوى عالٍ ، وكانت بقية أوربا في الحضيض الأسفل وكان أكثر العلماء كيفما كان علمهم

ماهرين في الطب ، ويروى أنّ دور الأطباء ، حتى أكابر الأغنياء منهم ، كانت مفتوحة في كلّ وقت للفقراء ، وهم الذين أدخلوا كثيراً من العقاقير إلى أوروبا .

ولم يكونوا في خدمة التاريخ ، أقلّ حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر . وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدّماً أساسياً ، لأنّ العرب كانوا ملاّحين شجعاناً حذّاقاً في الملاحة في وقتهم . فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحب الاستطلاع والتنقيب . وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقلّ مما سبق ، لأنّ الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع نواحي اسبانيا . وكانت حدائقهم غنيّة على مقتضى علم النبات تحتوي على طرائف الشرق والغرب . وكانت عندهم أيضاً طرائف أنواع الحيوان ، لدرس علم الحيوان ، ولهم ملاحظات وتنميهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى .

وهذه الأخبار – وإن كانت مختصرة جداً ، فهي كافية في دلالة القارىء على أن العرب المسلمين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها . والحق أقول : إن هلال ثقافتهم الذي يبدي ويعيد المقررون في تقريره ببلاغة ، ويسمونه : « طرد الكفّار » ، قد اوقف رقي النوع البشري مدة من الزمان . ومهما كان ، فلم يمكن إطفاء أنوار علومهم كلّها ، ولهم اولا ، ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم ، يرجع الفضل في ايجاد طلائع العلم من النصارى ككربرت وروجر بيكن وألبيرت الكبير (Albert she Great) ١١٩٣–١٢٨٠ م ، وكروسست (Robert grosseteste) ١١٧٥–١٢٥٣، فهم الذين علّموهم .

فاقرأ مثلاً سيرة كربرت ، تجده قد ولد في جنوبيّ فرنسة ، وتعلم في برشلونة ثم في جامعة قرطبة فكل ذرة من علمه المعبر جاءت من العرب المسلمين . فتح كربرت مدرسة في ايطاليا ، فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه ، فأحرقوا مدرسته وكسروا ادواته وشتتوا شمل تلاميذه . والحكام الماديون ، لم يسعهم إلا أن يكونوا عالمهم النصراني الذي ليس لهم غيره ، فمساعدتهم صار أسقفاً ، ومن مساخر التاريخ انه صار بعد بابا وسمّى : (سيلفيستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابويّة . وبعد اربع سنين مات ، وهناك تهمة قويّة أنه مات مسموما ، فلعنت الكنيسة ذاكراه ، ثم هي اليوم تفتخر به .

لكنّ روح علوم العرب المسلمين الحقيقية لم يمكن قتلها ، فثقب نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل ، ونتج شيئاً من الحياء ومكارم الأخلاق ، وحرّك رغبة اوروبا في العلوم العقلية . وفي القرن الحادي عشر (التالي لعصر قرطبة الذهبي) أخذت اوروبا تخرج من بربريتها ، ومعظم أسبابه التقدم السياسي الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي ، فصارت القرى مدنا ، والمدن الصغيرة امصارا ، والعامة احرزوا قسطاً من العلم ، والأشراف طمحوا إلى المعالي . ولما حصلت اليقظة الفكرية في الممالك النصرانية ، كان لزاماً أن تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها .

وليس هناك موضع ، اسفت على ضيق المجال فيه طبقاً لبرنامجي ، مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب ، لأن تاريخ العرب المسلمين العلمي عظيم ، وخدمتهم للنوع الأنساني عظيمة جداً ومهمة . وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم – يقصد النصارى – دوراً ظعظيماً ، ومكروا مكراً كبارا في إخفاء فضلهم ، فوجب عليّ أن اقف وقتي أؤلف على الأقل ستة كتب على الأقل ، مثل هذا في الأشادة باثارهم .

ذلك ما قاله مؤلف نصراني هو العالم الشهير المصنف الكبير جوزيف مككيب (Joseph maccab) الـذي ولـد سنـة ١٨٦٧ م وألف (٢٥٠) كتاباً من أهم الكتب في الفكر الحديث ، فيجلّه الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا .

ولست أجهل أن المعلومات الواردة في كتابه متيسرة في المصادر الأندلسية ، ولكنني آثرت أن أنقلها عن كاتب غير عربي ولا مسلم ، حتى لا يتهم بالتحيز والانحياز ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امريء ما نرى .

الكارثة

ولما ضعف أمر العرب المسلمين في الأندلس ، بسبب تفرقهم واختلافهم وتنازعهم ، غزاهم الأسبانيون ، وأخرجوهم من الأندلس مدينة بعد مدينة . ولا اريد أن استصغر من شأن الغزاة الأسبان وأعمالهم ، ولكن إذا حللّناها نرى أنها لا تشتمل على شيء من الخوارق ، إذ أعلنت الحروب الصليبية — أي الغزوات الدينية — وكانت من الفضاعة والقسوة مثل الحروب الصلليبية التي غزا فيها البابا أنوسنتا الثالث الألبجينيين (٨٨) . فالصلبان التي يزين

(٨٨) نسبة إلى (البجنس Albigens) ، وكانوا خوارج على الدين المسيحى ومبتدعين فيه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت عقيدتهم مشبعة بالزهد والتقوى ، ولكنهم كانوا يخالفون القسيسين ، وينقمون عليهم ماكانوا يرتكبونه من الفساد ، فاتحد القسّيسون وفى مقدمتهم البابا ، وعذّبوهم أشدّ العذاب ، وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لاغير ، وبضوا مجازر ذبحوا فيها خلقاً كثيراً وقتلوهم تقتيلاً فضيعاً . وكان الألبجينيون قد اخذوا بشيء من ، المدنيـة ، ولكنّ المذهب الكاثـوليكى وقف عقبـة كئوداً في طريقهم ، وكان الباب انوسنت الثالث المغرور ، قد أعلن الحرب الدينية عليهم ، فظهرت حينئذ صفحة من افجع صفحات التاريخ ، وابرزت العصبية نفسها فى افضع صورة واحلكها ، وقتلوا آلافاً من اولئك المساكين . ومن المعلوم أنّ الألبجينيين دافعوا عـن انفسهم دفـاع المستميت ، ومع انّ الكنيسة حشدت جميع قواها عليهم ، فقد خسرت كثيراً من العدد ، حتى كسرت شوكتهم واحرقت منهم مائتين فى يوم واحد ، واصبح تاريخهم احلك صفحة فى العصور المظلمة .

(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٤)

الأمراء والجنود صدورهم بها من الانكليز والفرنسيين والقشتاليين ، كانت هي الأذن في إطلاق العنان للنفوس الأمارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية (٨٩) .

تقدّم الصليبون ، وهم مزيج من كل جنس إلى قرطبة وإشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن ذلك العهد أخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد تتقلص وتتضاءل ، حتى صارت قرطبة القرن التاسع عشر الميلادي قرية حقيرة . ودمّر هؤلاء الصليبيون كل آية من)آيات العرب المسلمين في الأندلس وإن دقّت ، كما دمّروا ذكريات فنونهم ، حتى سووا كل ذلك بالتراب . نعم ، بقيت هناك منارة صغيرة ولكنها فخيمة ، تسمى : (جيرالدا) ، لتخبر العالم ماذا خسره في الأندلس . وقد عمد اولئك الهمج إلى الآلات العلمية فحطموها وجعلوها رميما ، لأنهم كما قال اسكوت : « كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً ، أن تلك الآلات خطرة ، ويظنون أنّها آلات جهنميّة لأعمال السحر واستخدام العفاريت » . وأخرجوا الكتب ، وكانت لا تُحصى كثرة ، وجعلوها أكوماً في الأزقة ، واوقدوا فيها التنيران . وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع . ولما رأى الملك الأسباني أنه ليس له قصر ملكي في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصوراً فخيمة ، أفاق من سِنته . وبعث في طلب الصنّاع المتفننين والعَمَلة من العرب المسلمين ، فبنوا له : « الكزر » القصر الذي نزوره اليوم ، وحجراته مثل المقصورة المسماة : « مقصورة السفراء » ، تخبرنا أن العرب المسلمين كانوا يعرفون كيف يعيشون .

(٨٩) يعنى انه بمجرد حمل الصليب والتوجّه لغزو المخالفين ، يحملّ للغازى كلّ شىء يريده فيمن يغزوهم ، والصليب يشفع له وينقذه من آثامه وظلمه .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٥)

استراح الأسبانيون قرنين كاملين إلى جوار العرب المسلمين ، وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالأخوين ، وكان الاسباني بطبعه يحب أن يعيش مع جيرانه في سلام ، ويعظم الشعب الذي كان يراه بالغاً ذروة العبقرية . ولكن القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل ، كانوا يضادون ذلك الميل ، فما زالوا يفتلون للحكّام في الذروة والغـارب ، ويحرِّضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين كانوا هم بناتها وهم مزينوها ، وأخيراً نجحوا في مطلبهم ، وهو أن كل مسلم يوجد في بلدانهم يُخير بين أمرين : إما التعميد والتنصر ، وإما الجلاء(٩٠) فاختار العرب المسلمون الجلاء فرراً بدينهم وشعبهم ، ليعيشوا في جو أمانٍ واطمئنان ، فنشأت منهم مملكة في غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين نسمة ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو من مخازي الأمم النصرانية ، فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب ، كانت هي فردوس اوروبة في أيام العرب المسلمين .

وقد جلب العرب المسلمون مياه كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار ، بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير ، فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما . قال اسكوت : « للقد فاقت في علوّ قدرها وأهميتها في نتاجها العملية ، جهود جميع الأمم المتقدمة والمتأخرة » ، ومقابلة زراعة العرب

(٩٠) ويناسب هذا المقام ، ماورد فى كتاب : (ماذر امريكا = الأم امريكا) للدكتور بوز الهندى ، فيمـا نقله عن القسيس الأمريـكى : (كيلكى Gilkey من اكابر علمـاء امريكا) ، وهذا معناه : « هـل نحن الأمريكيين نصارى حقيقة ، أم الشرقيون هم النصارى حقاً ؟ نـرى أن الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون اوامـره ، ويستنكفون عن اتباع مذاهب الغربيين ، فيجب علينا معاشر الأمريكيين اما ان نثبت ادعاء اننا ، واما نتركها نهائياً ، لأننا نرى فى الشرق أن الأجنبى يعامل بكل لطف واحترام ، ويبذلون كل جهد فى اِسعافه بما يحتاج اِليه . وكم منا يعامل الشرقيين كما ينبغى أن يعامل به البشر » .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٦)

المسلمين بما كانت عليه اوروبا من البؤس والعدم على وجه العموم ، تجعل لها اعظم وقع في النفس والنتجية أن الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الأندلس ، وكانت أنواعا مختلفة ، وصارت غرناطة مثل قرطبة غنية وجميلة جداً . وكانت جنات الكرم والتوت الواسعة تؤتي أهلها أحسن الخمور وأجود الحرير . وكانت الفُرَضُ (٩١) التي وراء الجبال على المحيط ، تمدهم بجميع الطرف ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة . وكانت الصناعات العربية الاسلامية أيضا في اوج ارتقائها ، وكانت هناك مقادير عظيمة من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة مالا يأتي عليه الوصف ، وكان ذلك الزخرف في الأسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس .

ومن حسن الحظ ، بقي قصر الحمراء الملكي ، ليرينا الجلالة والتألق والابداع في فنون العرب المسلمين الأندلسيين ، وحتى هذه الدرّة ، أصابها ما أصابها على يد الأسبانيين ، وكانت سائرة في طريق الخراب ، لولا أن بقية أوربا وأمريكا أجبروهم على أن يقنوا شيئاً من الحياد ، وحتى في هذا اليوم يجد فيها الأنسان معنى لفظ : « ارض عبقر » حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرصة الأسود ، فيرى سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان ، ويتملىّ بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهية ، إذا نظرت إليها خلتها زرابي أعجمية مرقّشة ، او رياض ازهار بهيجة ، قد اشتبكت فيها اشجار الصناعة العجيبة . ولها طنوف مشرفة ، قد أُفرغت في قوالب بديعة ، يحار الواصف في وصفها . أما جدرانها ، ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والأمثال والحِكَم المسطورة بأجمل شكل يذهل العقول ويروّع الناظرين . ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، حين كانت الثياب التي تُرى فيها كلّها من الحرير الخالص

---

(٩١) تعرف عند العامة بالموانى .

وحين كانت جدرانها تتلألأ بالألوان اللازوردية والأرجوان والذهب ، وحين كان الآس والاترج والورد ومباخر الفضة يحترق فيها عود الطيب تفعم جوّها بالروائح الطيبة . وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالا وإبداعاً في الذوق عن الحمراء ، إلا أنها أقل تلألؤاً بالذهب والفضة والجواهر . قال اسكوت : « ماذا عوّضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي تلك القصور ؟ وأي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها ؟ ! فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد (الكفّار) من اوروبة . وكان الأسبان قد حشدوا جنداً عظيماً . أما العرب المسلمون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليوناً إلى ثلاثة ملايين . ولم يكن ملك الأسبان فرديناند (٩٢) وملكتها إيزابيلا (٩٣) عديمي

---

(٩٢) فرديناند الخامس (Ferdinand) ملك قشتالة وليون (١٤٠٥ ــ ١٥١٦م) تزوج بابنة عمه ايزابيلا سنة ١٤٥٩ م ، وكانت ابنة الملك هنرى الرابع ، وانما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة الى نيل الملك بلامشقة . ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند ان ينادى بنفسه ملكا ، ولكن ايزابيلا كانت داهية مكارة ، فرأى فرديناند انه لا يتمكن من اخضاعها ، فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم ، وكانت اخلاقه سيئة ، يدل على ذلك أعماله الرذيلة التى ملأ بها حياته ، وكان يفخر انه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسا اثنتي عشرة مرة . كما نقض عهده الذى اعطاه الى كريستوفر كولومبوس ومن المحقق أنه كان كلما عقد معاهدة مع اى شخص كان ، يترك فيها الفاظاً يمكنه أن يتخذها وسيلة لنقض العهد . وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه ويغتالهم ، (انظر جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس ص ٦٨ .

(٩٢) ايزابيلا (Jsabella) (١٤٥١م ــ ١٥٠٤م) ملكة قشتالة ، استولت على الملك سنة ١٤٧٤م ، داهية مكّارة متعصّبة ، بذلت جهدها في تجديد المحنة وتعذيب المسلمين ، وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين . واما أحوالها الخاصة فلا تغبط عليها ، لأنها كانت تفتخر بأنها لم تغتسل في حياتها الا مرتين : يوم ولادتها سنة ١٤٥١م ، وليلة عرسها سنة ١٤٥٩م ، وغسّلت حين ماتت سنة ١٥٠٤م ، فتمت لها الغسلة الثالثة ، والحقيقة أنها لم تغتسل بأرادتها الا مرة واحدة ، وهى في ليلة عرسها ، لأن غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم موتها ليس من عملها .
جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس (٦٩) .

شهامة وعظمة كشهامة العرب المسلمين وعظمتهم فقط ، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء ، أغار هذا الملك على اموال العرب المسلمين ، فنهبها وتركهم يموتون جوعاً ، وبذلك قهرهم وألجأهم إلى التسليم . حتى المسيحية الليدي تشارلون بونج ، رق قلبها لما أصاب العرب المسامين ، فقالت في ص (١٩٠) عن كتابها تذكر العهود والمواثيق التي اعطاها اذلاسبانيون العرب المسلمين والشروط التي اشترطها العرب المسلمون عليهم ما نصته : « تكون غرناطة حرماً آمناً لكل من يلتجيء إليها من المسلمين من جميع الأقطار ، ويكوش لأبي عبدالملك (الملك) ضيعة في ارض البشرات (البوجارا) ، وأن جميع السكان حتى الذين اسلموا من النصارى يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم وخيلهم ، ولا يُسَلِّمون إلا اسلحتهم النارية ، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم ، وأن تكون مساجدهم مصونة من أي استعمال في غير عبادتها . وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم الحكمين من قِبَل الحكام الأسبانيين ، وأنهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعونه لملوكهم لا غير ، وأنهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين ، ليستجمعوا ويستردوا ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار (٩٤) .

ثم أخذت المؤلفة النصرانية المسكينة تتململ في سائر ما بقى من صفحات كتابها . من أجل غدر الملك والملكة الأسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها العرب المسلمين ، إذ لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة العرب المسلمين بمقتضى الشرف ، بل لم تشعر إلا بشيء واحد ، وهو أنه يجب أن تؤسس « مملكة نصرانية » ، كاد الناس يتميزون من الغيظ كيف يتولى عليهم حاكم محمّدي كافر ! أخذ من المسلمين أحد مساجدهم ، وجعل كنيسة : « وكان ذلك نقضاً للعهود » كما قالت المؤلفة النصرانية . ونفى المسلمين وعوملوا بأقسى معاملة بربريّة .

(٩٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (٦١٥/٢ ــ ٦١٦) وانظر النص الاسباني في : نهاية الأندلس (٢٣٠ ــ ٢٣٩) .

ولم ينجح القسيسون في تنصير العرب المسلمين ، مع أنهم احرقوا مصاحفهم وكتبهم كلها علانية ، وجُعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية إلى رئيس أساقفة طليطلة « المقدّس » زيمنس . وباختصار فقد نقض كل سطر ممن سطور المعاهدة ، وغدر الأسبانيون وأهانوا عهودهم ، فهاجر قسم عظيم من المسلمين تاركين واراءهم كلما يملكونه ، ورحلوا إلى إفريقية ، ولكن القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون بأظهار النصرانية ، ومَن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيداً للنصارى الغادرين . ثم جاءت المحنة : « محاكم التفتيش » ، فحرم عليهم كل شيء من امور دينهم ، حتى الاغتسال في حماماتهم ، ونهبت مئات من بيوتهم وطردوا من البلاد التي مدّنوها وعمروها ، ولم يبق منهم هناك إلا العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فكانوا يسجدون للمسيح في الملأ ، ويبصقون عليه في خلواتهم ، لأن الكاثوليكيين لم يحسنوا معاملة المسامين ، ولم يكن لهم علم ، فكانت أعمالهم وأقوالهم ناشئة عن الجهل المطبق بعيد عن التحقيق والعدل .

يقول ستانلي لين بول المؤرخ اليقظ ، بينما كان زيمنس (٩٥) رئيس محاكم المحنة في اسبانيا يصدر اوامره بمنع المسلمين من الاستحمام ، واختيار صفة الوسخ التي يتصف بها مستعبدوهم ، كان نصف أهل اوروبة يرفضون دعاوى الفاتيكان ويتخذونها سخرياً ، وكان العلماء يضعون العلم الحديث .

---

(٩٥) زيمنس (Ximens) ـ (١٤٣٧ ـ ١٥١٧م) ، كان رئيس الأساقفة ، وفي أوائل ايامه وقعت عداوة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة ، فحبس مدة من أجل مكايده ، ثم تعين قسيساً خاصاً لسماع اعترافات ايزابيلا ، وكان يتظاهر بالزهد والتقشف والورع الكاذب ، ولما استولى فرديناند وايزابيلا على غرناطة ، دعواه ليكون في خدمتهما هناك ، وهو الذى اشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم ، ولم يقتصر على اتلاف جميع النسخ التى ظفر بها من القرآن ، بل كان يتلف كل ما وصلت اليه من الكتب العلمية والأدبية ، وهو الذى أمر بنصب محاكم المحنة

←

ذلك ما ذكره جوزيف ماك كيب في كتابه حضارة العرب في الأندلس ، وما ذكره معروف بالتفصيل في المصادر العربية القديمة والحديثة ، ولكنني أثرت أن اقتبس ما ذكره هذا المؤلف المسيحي وغيره من المؤلفين المسيحيين ، لأنهم مسيحيون يتحدثون عن جرائم الأسبانيين المسيحيين في التخريب والتدمير واكتساح الحضارة والظلم والقتل والنهب والسلب والتنصير قسراً ، خلافاً لما فعله العرب المسلمون بالأسبانيين النصارى أيام الفتح الأسلامي للأندلس ، فما أكرهوا أحداً على اعتناق الاسلام ، ولا ظلموا أحداً ولا خانوا عهداً ، وتركوا أهل أسبانيا النصارى يمارسون عبادتهم بحرية في كنائسهم ، وكان بأمكانهم في أيام الفتح الا يتركوا اسبانيا واحداً يصر على التمسك بالمسيحية ، ولكنهم لم يفعلوا ، إذ : « لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغيّ » .

وهذا هو الفرق العظيم بين المسلمين إذا حكموا وقدروا ، وبين غيرهم إذا حكم وقَدَر ، كأن الشاعر حَيْصَ بَيْص أرادهم بقوله :

حَكَمْنَا فكانَ العفوُ مِنّا سَجِيَّةً
فلما حكمتم سال بالدم أبطحُ
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا
وكلّ إناء بالذي فيه يَنضح

(التفتيش) وتعذيب المسلمين تعذيباً كاد يحدث ثورة . وحينئذ ظهر بمظهره الحقيقي ، فأخذ يعيش عيشة الملوك . حتى انه لما مات فرديناند ، قام زيمنس ونصب نفسه نائباً للملك شارل ، لأنه كان غائبا . وتمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة ، ثم عزل ، فمات غماً من أجل عزله . وكان قاسي القلب ، شديد الحقد لكل من يخالفه في الراى ، ولو كان من اهل دينه . وكان رئيساً لمحاكم التفتيش ، فقتل لفين وخمسمائة شخص ، وتحمل اثم دمائهم في ذمته» ، ولا شك ان اعماله القاسية احدثت ثورة ، ولكنه قضى عليها بمكره . وكان لا يستنكف أن يكون قائداً للجيش بنفسه ، متى اقتضت المصلحة ذلك ، انظر جوزيف ماك كيب ـ حضارة العرب في الأندلس (٧٢ ـ ٧٣) .

وليس من الممكن اتهام الامريكي جوزيف ماك كيب بالافتراء على بني جنسه ودينه والانحياز للعرب المسلمين ، لذلك آثرت اقتباس أقواله في هذه الدراسة .

وحريّ بي أن أنقل تلك العبارة الموجزة القويّة ، التي يُجمل فيها الدكتور (لي) ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول في مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين (٩٧) لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء التي اتحدت لتنحدر بأسبانيا في خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها في عهد كارلوس الثاني ء» (٩٨) .

---

(٩٦) نظافة البدن التى كان الأقدمون يعتنون بها كل الاعتناء ، اهملت كل الاهمال بعد انقراض دولة الروم ، حتى أن أهل أوروبا لم يكونوا يغتسلون الا في أحوال خاصة ، وناهيك نهم كانوا يفرضون الغسل على من يريد الدخول في جماعة (تايتس) وهم امراء الحروب الصليبية ، ولذلك كانوا يسمونهم : فرسان الحمام . وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النظافة ، حتى أن الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط ، بل كان يكتفي بالادهان بالعطور ، ولم تكن توجد حمامات في قصور الأمراء والأغنياء ، الا في القرن التاسع عشر الميلادى ، انظر جوزيف ماك كيب ـ حضارة العرب في الأندلس (٧٣) .

(٩٧) الموريسكيون Morisques هم النصارى الذين تدينوا بدين الاسلام عن رضى وطيب خاطر ، بعد دخول المسلمين الى الاندلس ، فلما تغلب المسيحيون على المسلمين وارادوا اعادتهم الى ملتهم الأولى ، فضلوا الهجرة الي بلاد الاسلام في المشرق والمغرب . اما كلمة : (مستعرب Mozarabe) فكانت تطلق على المسيحين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المسلمين ، وكانوا مع ذلك يستعملون اللغة العربية في جميع شئونهم العادية . اما كلمة : مُدَجَن فتطلق على (Mudejar المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت نفوذ المسيحيين ، انظر مقال : مع الموريسكيين في بلاد الغربة ـ محمد محى الدين المشرقي ـ العدد ٢٤٩ من مجلة دعوة الحق المغربية ـ ص (٣١) ـ ١٤٠٥هـ .

(٩٨) نهاية الأندلس (٤) ـ محمد عبدالله عنان ـ ط ٢ ـ ١٣٧٨هـ ـ القاهرة .

ويعلق النقد الغربي الحديث على موقف الاسبانيين من العرب المسلمين بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمي غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل إسبانيا كلّ التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن (٩٩) ، ولتفوقت المملكة الأسبانية في فنون السلم والحرب ، وتوطد قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذي انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الرشوة بين الأجناس على كرّ الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وادى إلى علاجٍ كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا » (١٠٠) .

وعلى نفسها جنت براقش ، فقد كانت الأندلس بالمسلمين أستاذة الدول الاوروبية علماً وحضارة وفكرا ، وصناعة وزراعة وثراء ، فأصبحت إسبانيا بدونهم في الدرك الأسفل من دول اوروبة علموحضارة وفكراً ، وعصناعة وز راعة وثراء ، وكانت الأندلس أقوى دولة اوروبية بالمسلمين ، فاصبحت من بعدهم أضعف دولة اوروبية على الأطلاق . وقد خيل للذين طردوا المسلمين وشردوهم وفتكوا بهم في الأندلس أنهم احرزوا على الأسلام نصراً حاسماً ، ولكنهم تيقنوا بعد أن سبق السيف العذل أنهم احرزوا على أنفسهم لا على الأسلام نصراً حاسماً . وانهم خربوا بلادهم بأيديهم جهلاً وتعصباً وغرورا .

والدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود ، أن المسلمين انتصروا بعقيدتهم الراسخة ووحدتهم الصلبة : فلما تهاونوا بعقيدتهم ، وتفرقوا شيعاً . خسروا بلادهم وخسروا أنفسهم وذلّوا .

ذلك ما ينبغي أن نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود ، ولا ينبغي أنْ ننساه أبدا .

---

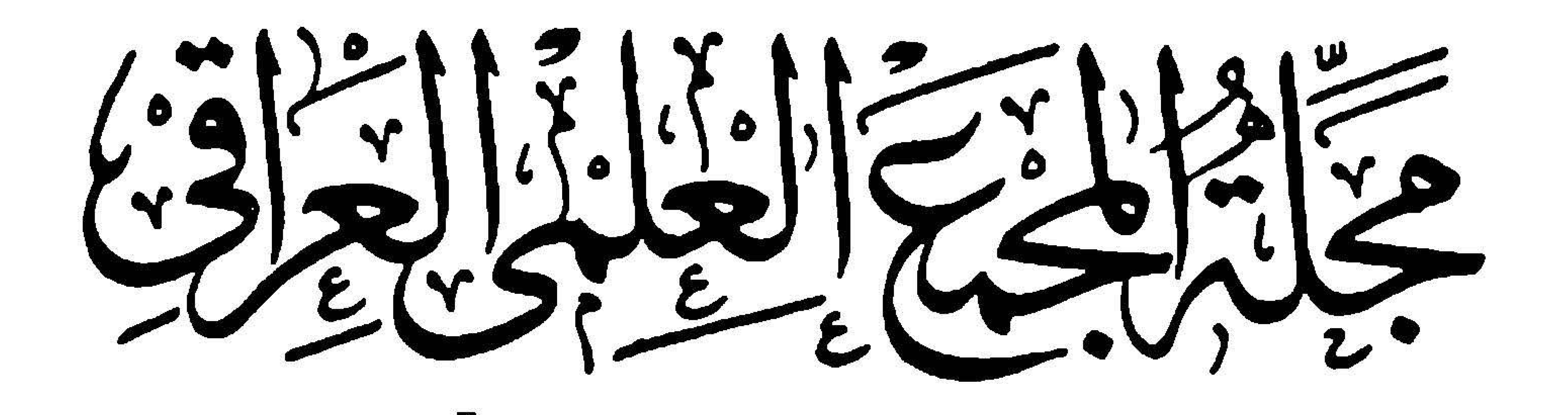
(٩٩) في ذلك نظر ، ولا أتفق مع راى المؤلف في هذا .

Dr. lea : the Miriscos, P. 22

الفهرس

الصفحة

تابين الراحلين من اعضـــاء المجمع





الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م

